الأدب الإسلامي
بين
الثرثرة الفارغة والحوار الهادئ

للأستاذ الدكتور / فتحي محمد أبو عيسى
عميد الكلية

رغب الى بعض مخالطى فى أن أختص هذا العدد من حولية الكلية بمقال ضاف عن « الأدب الاسلامى » يرفع عن كاهله اصرا ، أو يبدد غشاوة كانت — وما تزال — مدعاة الى كثير من الخلط فى تناولات مختلفة يجنح بعضها الى النظرة القاصرة حينا ، ويميل بعضها الى الشطط أحيانا •

وقضية (الأدب الاسلامى) من القضايا التى يكتنفها غير قليل من التعتيم والضبابية ، فهى قضية قديمة جديدة تدابرت فيها الرؤى ، واشتجرت حولها الأفهام ، والتبس الحق فيها بالباطل ، واندفع صوب مجراها جيشان العاطفة ازاء صوت العقل ، وأثمر كل أولئك وما اليه دراسات ومباحث ، لا تنقع — فى جملتها — علة ، ولا تبل أواما ، فمن باحث يذهب الى أن الشعر شعر ، وأن محاولة ارتباط الأدب بالاسلام يجهض الكلمة الخضراء ، ويجعل منها كلمة شاحبة أو ذابلة لا تقوى على الفاعلية والتأثير •

ومن آخر يرى أن الأدب ينبغى أن يكون ذا توجه اسلامى حتى النخاع ، وأن يصدر — أبدا — فى غاياته عن الاسلام وصفائه ، ولا

(*) هذا المقال برمته — فيما عدا جزءا يسيرا من صدارته كتب ليمثل جامعة الأزهر فى ندوة (الادب الاسلامى) التى كان مزمعا عقدها فى المدة من ١٤ — ١٦ (ابريل ١٩٩٢) ، وقد جعلناه ثمة بعنوان (الأدب الاسلامى بين مؤيديه ومعارضيه) .

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثاني عشر، مؤسسة البستاني للطباعة ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م

يبالى هذا البـــاحث أو يعنيه أن يعصف بالتراث العربى الذى أبدعته العقلية العربية خلال قرون زمنية متطاولة ، بما يؤرخ لتلك الأمة الماجدة، ريشهد لها بالتفرد والفوقية فى عالم البيان ••• الى ثالث لا عليه ولا له ، فسواء لديه أن يكون الأدب عربيا أم اسلاميا ، وماذا على هؤلاء الذين يجهدون فى تمحيص القضية لو أنهم أخلدوا الى الدعة ، ولم تضق بيوت الله فى أرضه الواسعة عن استيعاب خطبـــة اسلامية أو موعظة دينية ، وهل ــ بالضرورة ــ أن يكون الشاعر خطيبا أو واعظا ، ولكل وجهة هو موليها ! •

وليس من قبيل الحديث عن النفس أن أذكر ــ فى هذا الصدد ــ أن أسبابا جمعتنى ببعض المعنيين بهذه القضية على صعيد مصر ، وفى المملكة العربية السعودية فى لقاءات علمية استهدفت تجلية أبعادها ، كنت فى بعضها أحمل عبء المشاركة الحية ، لكننا ــ من أسف ــ لم نحظ ــ ولو بقليل ــ من الطموح الذى استشرفنا اليه منذ البداية،ويعزى ذلك ــ فى تقديرى ــ الى طبيعة المناخ الذى يسمح بعقد هذه اللقاءات ، فحيث كان المناخ مواتيا للرأى والرأى الآخر ضاعت الحقيقة أو اختفت تحت أنقاض ، أو ركام من فكر ترتطم فيه الرؤية الجـــادة الواعية بالنظرة المبتسرة القائلة ، وحيث كان مناخا لا يجود بالمطارحة جاءت محصلته فى النهاية همهمة حبيسة لا ترقى الى أن تزيل شبهة أو تكشف بعدا ، وهكذا تمخضت الندوات عما عناه الشاعر :

تـــراوح أمرنا ما بـــين غـــال
ورجعى يرى فى البسط قبضـــا

بلوت هذه المواقف عن كثب ، واستيقنت ــ ومازلت ــ بأن النوايا الطيبة وحدها لا تكفى فى الدفاع أو النزال ، وأن المواجهة المتجردة هى السلاح الأمضى فى قضايانا العلمية الشائكة •

* * *

فأما أن « الاسلام » منة الله العظمى على الوجود ، وأن رسوله الكريم « محمدا » صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، فهذا مالا يملك

المسلم حياله الا الاذعان له ، والاقرار به ، ومن الآيات التى تؤكد ذلك قوله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا »[1] •

وقوله — أيضا — « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »[2] •

ومن أصدق من الله قيلا ! •

وأما أن « للأدب » رسالة تنضر وجه الحياة ، وتسمو بها الى أوج مجاق فأمر لا يرقى اليه شك ، ويعنى ذلك — بداهة — أن الأديب — شاعرا كان أو ناثرا — ينبغى — فى ضوء ما تملى عليه رسالته — أن يفرغ كلماته ومعانيه وصوره الا من الشحنة التى بها يتحرر أسلوب الفن عنده من مناكر الفحش والخنا ، ومباذل التكسر والتخنث ، وربقة الملق والكذب وكل ما من شأنه أن يشيع الفساد فكل أولئك وما اليه من المسلمات التى لا تعوزها مناقشة •

وأما أن أشكال الأجناس الأدبية من شعر ومقال ، وخاطرة الى خطابة وقصة ومسرحية ••• تتماع بينها الحدود ، وتتذاوب الحواجز بما يحيلها فى النهاية الى نمطية معينة تخضـــع لمنهج فنى واحد فلا وألف لا ، وعنـــد هذا البعد ذاته تتفرق السبل بالباحثين فيبدو الخيط الذى يحول القضية الى مسخ شائه الا من عصم الله ••

وفى حومة الاشارة الى ذلك المعنى نبادر فننبه الى حقيقة جديرة بالتأمل ، مؤداها : أن المعارف — على اندياحها وتباينها — من أعصى أن تتطامن — فى بحثها — لمنهج خاص ، أو سمات متفقة ، والا ما كان ثمة فرق بين جوهر « الشعر » وطبيعة « النثر » ، يدين بتلك الرؤية كل من له معايشة للتراث الاسلامى والعربى على سعته وتراحبه •

وحول هذا المعنى يذكره الأستاذ (عمر عبيد حسنة) فى مقدمة كتاب « كيف نتعامل مع القرآن » للداعية الاسلامى الشيخ « محمد الغزالى » قائلا :

« لكل علم من العلوم الانسانية والتجريبية مناهج وآلات ، وتقنيات خاصة لفهمه وادراكه ، حتى اننا نرى اليوم لكل شعبة أدوات خاصة لفهمها فى مجال العلم الواحد ، ففى مجال النقد الأدبى — مثلا — هناك مناهج متعددة ، وفى مجال التربية والأخلاق والتاريخ ، والسياسة ، والاجتماع ... الخ ، أصبح لكل علم أدواته وآلات فهمه ، ولكل منهج خصائصه وشروطه وميزاته ، ولكل معرفة وسيلتها التى توصل اليها ، ومن هنا نقول : ان منهج علماء الأصول على دقته وعبقريته فى استنباط الحكم التشريعى من آيات الأحكام لا يمكن أن يعتمد ليكون وسيلة علماء التاريخ والاجتماع والسياسة ، الخ ، بل بامكاننا القول : ان هذا المنهج على دقته قد يكون مفسدا للنتائج والحقائق لو استعمل فى غير ميدانه الذى وضع له ، على الرغم من بعض التلاقى والأدوات المشتركة أحيانا فى ميدان العلوم المتجانسة »[٣] .

وهذا كلام يعكس — ولا ريب — ثقافة عالية ، وفهما متمكنا ، والماما بصيرا بجوانب المعارف وأفانينها .

ومن هنا فان نظرة « مصطفى صادق الرافعى » — أسبغ الله عليه الرحمة — فى هذا النطاق وان بدت تتناول معنى تراثيا ، تبدو قاصرة ، وذلك اذ رأى أن المناهج العلمية التى تغزو مجالات العلوم انما كان الفضل فيها الى « المحدثين » الذين أسسوا منهجا علميا نابها ذا ملامح متفردة فى دراسة الحديث النبوى وروايته وتأليفه ، وكل ما يتعلق به[٤] .

ومع اجلالنا للرافعى نؤكد أن نظرته — على ما تنطوى عليه من حب مكين للاسلام ، وغيرة على تراثه — تشكل « طعنا خطيرا فى تاريخ حضارتنا العربية ، وانتقاصا لمئات من علمائنا القدامى فى اللغة والأدب والتاريخ وسائر المجالات الأخرى ... مجموعة من الكسالى والاتكاليين الأغبياء الذين رأوا ما توصلت اليه قلة من زملائهم من علماء الحديث ، فطبقوا ما توصل اليه زملاؤهم هؤلاء ، وسارعوا الى السير على خطواته، معتمدين فى هذا جهود تلك الفئة من زملائهم دون أن يكون لهم شخصية علمية مستقلة ، أو جهد متميز ، أو معرفة بالمنهج »[٥] .

وينهض لخلافنا مع « الرافعى » والرد على ما رأى — اضافة الى ما سبق — ما وجدناه عند « أبى أحمد العسكرى » ت : ٣٥٢ هـ فى مقدمة كتابه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » ما يلى :

« وكنت عملت فى شرح ما يشكل ويقع فيه التصحيف كتابا كبيرا جامعا لما يحتاج اليه أصحاب الحديث ونقلة الأخبار من شرح ألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم التى لم تضبط ، وحملت على التصحيف ، ومن أسماء الرواة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ولما يحتاج اليه أهل الأدب من شرح ما يشكل ويقع فيه التصحيف من ألفاظ اللغة والشعر وأسماء الشعراء ، ثم انى سئلت أفراد ما يحتاج اليه أصحاب الحديث ورواة الأخبار عما يحتاج اليه أهل الأدب فجعلته كتابين ذكرت فى أحدهما ما يحتاج اليه أصحاب الحديث ، ورواة الأخبار ، واقتصرت بهذا الكتاب على ما يحتاج اليه أهل الأدب »[٦] .

فلو أن منهج رجال الحديث مما يتفق أو يتساوق مع منهج الأدب لما كان ثمة من حاجة فى أن يعمد (أبو أحمد العسكرى) الى افراد ما يحتاج اليه رجال الحديث ، وكأنما فطن بذوق العالم الأديب ودقته الى اختلاف المنهج ، وتميزه عند كل منهما[٧] .

أجل ، ان موقع الباحثين والدارسين للأدب الاسلامى — والشعر منه على وجه أخص — فى أقصى اليمين ، أو أقصى الشمال يرتد — فى كنهه — الى مدى القيمة الفنية للشكل الأدبى فى التعبير عن مراده تارة ، والى الغاية التى ينبغى أن يتوخاها طورا ، واذا كان شائعا :

ليس يحسن فى شرع الهــوى
عاشق يحسن تأليفا الحجج (*)

فمن العبث — اذا — أن تستحيل الحدود — بين الأطر الذهنيــة المتعددة — وهى تبعة فى دوحة الأدب — هلامية غير منضبطة أو مقننة •

وفى تقديرى أن الصحوة الاسلامية المباركة التى تجسدت مظاهرها فى الحقبة الأخيرة على صعيد العالم العربى والاسلامى هيأت السبيل دون رهط من الباحثين والكاتبين ، وأغرت بعضهم بأن يلقى بنفسه فى تيارها ، وبين أولئك من لم تشب — عنده — أدوات البحث وملكاته ، ومن ثم كانت محصلته — فى هذا الجانب — خلطا لا تتبين فيه مقطعا لحق فى غير قليل مما عالن به أو انتهى اليه •

ومن خلال التعقب الراصــد للحركة التى تمحورت حول « الأدب الاسلامى » ولا سيما الشعر يمكن تصنيف أصحابها الى :

١ — قبيل يتذرع فى الدفاع عن الأدب الاسلامى ببعض تشنج ، لا مكان له فى دنيا الحوار أو العقل •

٢ — طائفة رأت أن تركب متن هذه الموجة أملا منها فى أن تكون السباحة أو التجديف مع التيار عاملا من العوامل يحقق لها من الكسب المادى أو الأدبى ما تحلم به •

(*) البيت لعلية بنت المهدى — راجع الأغانى للأصــفهانى ١٧٤/٥ (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب — وزارة الثقافة والارشاد القومى) .

٣ ــ جماعة تود فى شوق لهيف ونية صادقة أن تنطلق فى تأصيل مفهوم « الأدب الاسلامى » تأصيلا تراثيا ، طريقة السبر والمطارحة ، لا الحماس الأبله أو الابتداع المقيت •

ولعل من الخير أن نضرب صفحا عن الأولين ، فقل أن تجدى المناقشة فتيلا مع هؤلاء ومن لف لفهم وقد درجوا على توظيف حناجرهم فى التصاريح بالدعوة الى أن يصطبغ الأدب و « الشعر » بالاسلام ، دون فلسفة تكشف عما يرومون من وراء هذه الدعوة تتصل بالتراث ومعطياته وواقعه ، وقد ترى لدى بعضهم نصوصا دينية جاهزة يستمرىء اجترارها ، وليت هذه النصوص مما تضوىء غايته ، والا فأية علاقة بين اقحام قوله تعالى ــ مثلا ــ : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »[٨] ، وما يشكل رؤيتهم فى الدعوة الى أدب اسلامى اللهم الا أن تكون نصوصا تمثل عبئا على القضية المطروحة ؟ ! •

ولو فقه هؤلاء ما كان لتوجه مشركى العرب فى رمى القرآن الكريم مرة بالشعر ، ثم ما كان لتوجههم مرة أخرى فى رمى الرسول صلى الله عليه وسلم بالشاعرية ــ وكان هذا مقصودا منهم ولا شك ــ لأدركوا أن للشعر مقومات خاصة لا ينهض بها سواه من فنون الكلام التى سادت حياتهم ، ويستوجب هذا أن يكون الوعى بتلك المقومات واردا فى حساباتهم ••

وما كانت سبل التواصل الفكرى ولن تكون قائمة على الخطابة اللاهبة ، كما أن نفيق الضفادع لغة مرفوضة فى دنيا الحوار والمناقشة البناءة •

فماذا بوسعنا أن نذكر عن « الأدب الاسلامى » ؟ أو ــ ان شئت ــ الشعر الاسلامى ؟ وكيف يمكن أن يكون ثمة غزل اسلامى ، أو مدح

اسلامى ، أو فخر اسلامى أو ما الى ذلك من تجارب أخرى ينفعل بها الشعر ويعبر عنها ؟ •

أتراهم يريدون بترداد (الأدب الاسلامى) أن يثبتوا أن لذلك الأدب شعره ونثره جذورا غائرة فى أعماق التاريخ وأن يكون قد عانق الحياة وصافح الوجود ؟ أم تراهم يلحون على أن تتوجه همة الأدباء الى (الاســـلام) فى كل ما ينتفعون به من أدب وشـــعر ، أم لعلهم يقصدون المعنيين متمازجين ؟ •

فاذا كانت الاولى فذلك مالا يستطيع باحث فيه مسكة من عقل أو يقين أن ينكره أو يتنكر له ، كيف وقد كان من فضل الله على تلك الأمة الماجدة أن اعتمدت فى الصدارة من مناهجها المنهج التـــاريخى الذى يسود معاهدنا وجامعاتنا على الرغم من تعدد هذه المناهج وتوظيفها فى حقل الدراســـات الادبية والنقدية •• وكان كقطب الوحى تدور حوله دراسات أدبية من الكثرة بمكان،ومن ذا يجرؤ على أن يسقط من تاريخنا الأدبى عصرا كان للاسلام فيه صـــولة وجولة فى استنطاق الألســـنة بالمعانى الريانة النـــدية مما له علاقة بكتاب الله تعالى وسنة رســـوله صلى الله عليه وسلم من ذود عن الاسلام ودعوته ، الى شعر يتعقب الغزوات والفتوحات الاسلامية الى اطار آخر نصب الشاعر فيه لهاته للدعوة الى المناقب والمكارم ، ومن عجب أن لسان النقد الأدبى هو الآخر مضى يواكب ذلك الأدب الاسلامى ، ويمتح من معينه ، بل ويسدد خطا الشعراء على الدرب ، رسوخا منه ــ وقتئذ ــ بأن الاسلام وحده هو المهيمن على الحياة ، وأن رايته البيضاء ، وقيمه النبيلة ينبغى أن نرفرف على ذلك الوجود وقطاعاته بشكل لافت ، وما بنا من حاجة لكى نعود الى الشعر الاسلامى فى عصره النبوة الزاهر ، لاجالة النظر فيـــه ، أو لعرض نماذج مضيئة منه يسرى فيها روح الاسلام ونبضـــه ، فذلك خطب يسير يمليه على ما اصطنعته من منهج فى هذه الدراسة ، لنرى

الى أى مدى استطاع الشعر الاسلامى أن يهز العواطف فينساب بين المشاعر رائقا تخالط بشاشته النفوس .

يقول (حسان بن ثابت) يفتخر بيوم بدر ويعير الحارث بن هشام بفراره عن أخيه أبى جهل بن هشام :

تبلت فؤادك فى المنـام خريدة
تسقى الضجيع ببـارد بسـام
كالمسـك تخلطه بمـاء سحابة
أو عاتق كـدم الذبيح قـدام

....

أما النهـار فلا أفتـر ذكرها
والليـل توزعنى بها أحـلامى
يا من لعـاذلة تلـوم سـفاهة
ولقد عصيت الى الهوى لوامى
بكرت الى بسحرة بعـد الكرى
وتقـارب من حـادث الأيـام
زعمت بأن المـرء يكرب عمـره
عـدم لمبتـكر مـن الأصرام
ان كنت كاذبة الذى حـدثتنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقـاتل دونهم
ونجا برأس طمـرة ولجـام
جـرواء تمزع فى الغبار كأنهـا
سرحان غاب فى ظلال غمـام
تذر العناجيج الجيـاد بقفـزة
مر الدموك بمحصد ورجام (٩)

ويقول عبد الله بن الزبعرى بعد اسلامه :

سرت الهمـوم بمنزل الهـم
اذ كـن بين الجـلد والعظـم
ندما على ما كـان من زلـل
اذ كنـت فى فنن من الاثـم
حـيران يعمـه فى ضـلالته
مسـتورد لشرائع الظـلم
عمـه يزينـه بنـو جمـع
وتوازرت فيـه بنـو سـهم
فاليـوم آمـن بعـد قسـوته
عظمى وآمـن بعـده لحمـى
بمحمـد وبمـا يجىء بـه
من سـنة البرهان والحكم (١٠)

ولست أبتغى أن أعدد النماذج ، فحمادى القول أن نومىء هنا — الى أن الاسلام حين يصادف شاعرا ينفعـل بروحه ، ويستلهم رؤاه بنماز فنه ، وينفخ فيه من سمات التفرد ما يعز أن نقف عليه فى مجال الكلمة أو المعنى الأنف •

واذا كانت الثانية فمن النصفة أن نظاهرهم فى هذا التوجه شريطة أن يكونوا على اقتناع تام بمرونة الضـوابط التى تدعو الى التزام « الشاعر » ، اذ ليس من مصلحة الأدب العربى ، ولا من هدف الأدب الاسلامى نفسه أن يرتبط التصور الاسلامى بقمع الجيشان الهادر فى نفس الشاعر أو الحجر عليه ، ومن ضيق العطن — ولا ريب — محاصرة الشاعر والمصادرة عليه فى مجالس (الافتنان) التى ينهض لتصويرها بريشته وحمله — قسرا — على أن يدور فى حركة صارمة محددة ، أفاذا

أرسل شاعر أنفاسه الحرى ليجرى فى حلبة الشاعر الفقيه « عروه بن أذينه »(*) — مثلا — وهو ينشد أبياته الذائعة :

ان التى زعمت فؤادك ملهـــا
خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فيك الذى زعمت بهـا وكلاكما
يبدى لصاحبه الصبابة كلهـــا
ويبيت بين جوانحى حب لهـــا
لو كان تحت فراشها لأقلهـــا
ولعمرها لو كان حبـك فوقهـا
يوما وقد ضـحيت اذا لأظلهـا
واذا وجدت لها وساوس سلوة
شفع الفؤاد الى الضمير فسلها
بيضـاء باكرها النعيم فصاغها
بلبـاقة فأدقهـا وأجلهـا
لما عرضـت مسـلما لى حاجة
أرجو معونتهـا وأخشى ذلهـا
منعت تحيتها فقلت لصـاحبى
ما كان أكثرها لنـا وأقلهـا
فدنا فقـال لعلهـا معـذورة
من أجل رقبتها فقلت لعلها (١١)

نباكر — باسم الاسلام — الى تسفيهه وتجريحه ! ، وما !!شعر

(*) عروة بن اذينة من شعراء المدينة ، ومن الفقهاء المحـدثين ومن النساك الزهاد ، روى عنه (عبد الله بن عمر) وكان يحمل عنه الحديث . ت : حوالى ١٣٠ هـ .

ما لم يكن مضمونا زاكيا ، وصـــورة مونقة ، ومعنى رائعا ، وخيـــالا مبدعا ! .

أو ليست هذه الأنفاس الشعرية الرقيقـــة أدخل فى باب الدين والفن معا ؟ .

لعل ما يجرى على تلك المثابة يؤكد أن عملية « الابداع » فى لشعر اذا صدرت عن التصور الاسلامى تتطلب من الشاعر « التزاما مرنا ، والا فانه القيد الذى يغل العمل الأدبى ، والجدار الذى يقف بمواجهة الابداع والتيبس الذى يميل بالمعادلة الأدبية عن ســـويتها المطلوبة ، ويجنح باتجاه التقرير التفكيرى على حساب القـــدرة الابداعية ، انه يتوجب أن يكون الالتزام عفويا متساوقا منسابا ، وألا تقـــوم علاقة بالابداع الفنى على القسر والتكلف والالزام ، وألا يعترف بالمدرسية أو التقريرية أو المباشرة ، علاقة عفوية متدفقة ، تذكرنا بعلاقة العيون الزرقاء بما يتدفق على حقول الربيع العطشى من ماء فرات ، بعـــلاقة التربة الطيبة الخصبة الحمراء بما تغطى به وجه الأرض من بحـــار لا حدود لها من السنابل الخضر ، بعلاقة البحر الهادىء والريح الرخاء بالمراكب التى تبحر بهدوء فجر كل يوم صـــوب ما قسمه الله لها من أرزاق »[١٣] .

واذا كانت الثالثة فقد تحققت الشمولية التى تستنطق التاريخ ، وتستشف الفن ، وتتعامل مع معطيات العمل الابداعى التى تقوم على عبق التاريخ ، ونبض الفن ، هذا النبض الذى يستلهم الرؤية التراثية الجمالية ، وهى رؤية عكف عليها النقاد القدامى وصاغوا مقاييسها دألمعية وبراعة حتى كانت شيئا مذكورا فى الساحة النقدية القديمة والمعاصرة على السواء ...

فى هذه المعالجة التى نقدمها يغدو تأصيل مفهوم (الأدب الاسلامى) أمرا يحتل مكان الصدارة فى ذلك البحث ، لكنه لا يتأتى الا فى اطار

التراث الرحب الذى حفل بالنظرية الى جانب النص ، فعسى أن يكون هذا هاديا لنا فى تحرير المقصود ، وبلورة المفهوم •

وفى يقينى أن الدعوة التى لا تستهدف تلك الغاية وهى تبحث عن التأصيل لا تعدو أن تكون دعوة نظرية أو كلاما من الذاكرة ، لا يستند الى برهان ، أو تدعمه حجة •

ومن هذا المنطلق يظل كلا د• صابر عبد الدايم فى كتـــابه الذى قدمه ـــ باخرة ـــ الى حقل الدرس الأكاديمى ـــ لا الهيام الشعرى ـــ بعنوان (الأدب الاسلامى بين النظرية والتطبيق(*)) فى حاجة ملحة الى مراجعة ومعاودة نظر ، حيث حاول ـــ خلاله ـــ أن يعيش مطارحات قاربت الخمسين صفحة أو زهاءها منه تغيا فيها ما أسماه بالكشف عن (الأدب الاسلامى) بيد أن حديثه الطويل فى تلك الصفحات جاء خلوا من التطبيق النصى على الشعر العربى القديم ، ومن هنا كان الاحساس بالطفـــرة(**) حين ولـــج مجـــال التطبيق على الشعر المعاصر(***) ، اذ لم يجل أو يكشف عن الأواصر التى تجمع بينهما ، وما من شك فى أن التصدى لاماطة اللثام عن هذه العلاقة ونوعيتها أجدى على الدرس الأكاديمى كثيرا ـــ من التعويل على كتاب المرحوم الأستاذ « سيد قطب » « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » ، فقد جعله مرتكزا يدور حوله فى معرض التأصيل والكشف عن ماهية (الأدب الاسلامى) ••

وبهذا بقى كلام د• صابر يمثل جانبا نظريا واحدا لا يقوى على

(*) الكتاب صدر ١٤١٠ هـ / عن دار الأرقم بالزقازيق .

(**) على هذا الحذو جاء صنيع د. ابراهيم عوضين فى كتابه (مدخل اسلامى لدراسة الأدب المعاصر) ط : الاولى ١٩٩٠ .

(***) انظر ص ٤٧ .

المواجهة ، مما أحال حديثه الى نظرية لا يعززها التطبيق التراثى الذى نعده ركيزة أصلية وأساسية فى توضيح المفهوم .

وعلى الرغم من هـذا فانه (أعنى د. صـابر) أبى أن يسلس قياده — على طول الخط — لفكر المرحوم « سيد قطب » ، ومن المواقف التى تشهد بذلك — فى تضاعيف كتابه — أن ينبرى للرد على الأستاذ « سيد قطب » فى اسقاطه شعر كل من (أبى تمام ، والمتنبى ، والمعرى) من الأدب الاسلامى ، وذلك حيث قال د. صابر بالحرف الواحـد : « وفى الحقيقة أننا لا نستطيع أن نلغى كل هذه الجهود الفكرية لعلماء الاسلام ، فهم لم يكونوا نسخا مشوهة من فلاسفة الاغريق ، وانمـا وجدناهم يصفون ما يترجمونه ، ويحاولون الانتفاع بما يجدونه نافعا فى مجالات التفكير ... الى أن يقول :

فظاهرة المجون فى الشعر العبـاسى وسريان الخيط الفلسفى فى النسيج الشعرى فى شعر (أبى تمام ، والمتنبى ، وأبى العلاء) يعد أثرا من آثار هذه الثقافات اليونانية والفارسـية والهندية ، ورغم هـذه الثقافات السلبية التأثير بالثقافات الأجنبية فى الفكر الاسلامى لاتستطيع أن نتوافق مع الكاتب فى عزل التراث جملة عن التصور الاسلامى ، لأن التأثير سمة كل حضارة زاهية مشرقة »[١٣] .

وحسنا جاء الرد بما يصيب شاكلة الحق — فالأدب الاسلامى — والشعر منه كالسويداء من القلب — تراث أمة عبر عنه لسـانها فيما تعاقب عليها من أحـداث وخطوب ، ووسـوسات للنفس ، وهواتف للوجدان ، و « تراث كل لغة من اللغات وان كانت وحدة لا تكاد تتجزأ الا أن اختلاف الأزمنة والأمكنة يمنح كل نص وسما بائنا عن سواه ، ويفيض عليه لونا متفردا من غيره ، فهذا أمر — كما ترى — شـديد المراس لمن لم يملك ناصيته فلا يهجم عليه بلا أداة وبلا روية ، وبـلا

استبطاء ، وبلا فهم ، الا كل من ظن فى نفسه الظنون ان جهـلا واما رعونة ، وليت الأمر فى دراسة الأدب يقف بنا عند هذا الحد فانه أهول من ذلك فى كل زمان ومكان ، وفى كل لغة ذات بيان ، انه لأمر مفروغ منه ، أمر ارتباط الآداب بتاريخ الأمة وعاداتها وأخلاقها وديانانها ، وما شئت من شىء تعتد به الأمة ذات كيان قائم متميز ، فدارس الآداب اذا لم يكن مطبقا لذلك كله بصيرا به ، حسن التصرف فى جليله ودقيقه ، جيد الفهم لغوامضه ومبهماته فهو حرى أن يشوه الصورة عند تركيبها تشويها فيه من الشناعة ، ما يجعل دراسته مثلة بمن يدرسه كما يمثل المحارب المحترف بجثة عدوه ، وقد أطارت لبه حدة العداوة والحقد ، واتقان دراسة هذه المادة كلها تعد دراسة أدبية محضة ، فلا يستطيع دارس أن يقول للناس انها ليست من صميم اختصاصى ، فاذا قالها فذلك ايذان منه بأنه فقد التمييز ، وجهل أساس كل منهج ، واستحق أن يطرح الناس ما يقوله اذا هو لم يجد عند نفسه القـدرة على أن يستحى فيستر ما يكتب ، ويغيبه عن أعين الناس »(١٤) .

وتأسيسا على هذا الذى نراه فان التعبـير بالأدب الاسـلامى لا يخرج عن كونه أدبا منسوبا الى الاسلام ، أو الى عصره ، ومن واجب الدارسين والمتخصصين أن يكون وكدهم موجها الى تأصيل المفهوم ... ومن الخير للأدب الاسلامى أن يظل بمبعدة عن الزج به بين المصطلحات العلمية أو الأدبية المقررة التى تواضع عليها الاثبات والنقاد ومن اليهم ريثما نشحذ أسلحة البحث ، ونعكف على التنقيب فى محراب التوخى بغية التوصل الى مفهوم يجمع حوله شتات الجهود المبذولة هنا وهناك فى اتساق ينتظم كل الرؤى ، لا الى مدلول يبقى راعشا أمام تجارب مختلفة ، وشعراء متباينين .. ومن ثم كان من الجزافية أن يرفع بعضنا عقيرته ـ وقد يكون دافعه الى هذا حسن النية وشرف المقصد ـ بدعوى

أن (الأدب الاسلامى) مصطلح علمى ، أو هكذا بات مصطلحا مؤكدا أخمل دونه مصطلحات شتى تجارية فى هدفه ، أو بعض غاياته ، كأدب الدعوة الاسلامية ، وأدب العقيدة الاسلامية ، والأدب الدينى ، وهلم جرا •

واليك ما يقوله الباحث فى ذلك المعرض :

« الأدب الاسلامى ، وأدب الفكرة الاسلامية ، وأدب العقيدة الاسلامية ، وأدب الفكر الاسلامى ، وأدب الدعوة الاسلامية ، والأدب الدينى ، والفن الاسلامى مصطلحات كانت تتردد على ألسنة الدعاة الى بعث هذا اللون المتميز من الأدب وأقلامهم ، ولكن لم يصمد من هذه المصطلحات الا مصطلحان : « الأدب الاسلامى » وأدب « الدعوة الاسلامية » ، وعلى الرغم من أن المصطلح الثانى له أنصاره ودعاته فانه لم يستطع أن يقاوم انتشار المصطلح الأول الذى سرعان ما رسخت جذوره ، وكثرت أغصانه وفروعه[١٥] •

واخال أن التثبت العلمى يصادم تلك النظرة التى تدعو الى جعل الأدب الاسلامى مصطلحا له ذيوعه وسطوعه ، فمن الجلى أن المصطلح لا تكتب له السيرورة الا حيث تستفيض الدراسات من حوله ، ثم يكون المجال التطبيقى معززا لألوان الدراسات المتعددة ، وما نظن أن باحثا من الباحثين بوسعه أن يرد انتساب النماذج الصافية الشفافة من الشعر الاسلامى بعامة الى دوحة الأدب العربى •

وغريب ألا يفطن الباحث المذكور الى مطاوى كلامه ، وذلك اذ رأى أن هناك مصطلحات انثالت على الأقلام ثم ما لبثت بعضها أن تتوارى ، أو تراجع مده أمام مصطلح (الأدب الاسلامى) أفليس هذا مدعاة الى وجوب التريث فى اطلاق المصطلح ؟ والا ففيم انزواء بقية المصطلحات الأخرى واختفاؤها ، أو تساقطها واحدا تلو الآخر ؟ ، لعل السبب فى

تقلص هذه المصطلحات وانكماشها يكمن فى الفورة الحماسية التى قد تباعد بين الباحث وأناته وحسن تأتيه ، وما عهدنا مصطلحا ينهض ليكبو ، ويظهر الى الوجود فينطمر لكى يبقى فى ذمة التاريخ شيا منسيا الا اذا كان قد عانق الحياة وليدا شائها أو ناقصا ليس فيه مناعة تقيه ، أو تحصنه ، فآل أمره الى أن يكون حتفه فى مولده وذهب من حيث جاء .

وفيما يود هذا الباحث وأمثاله أن يشيع هذا المصطلح نرى طائفة أخرى من الموالين للأدب الاسلامى يفصحون عن واقع هذا الأدب ، فيذكر الأستاذ (محمد قطب) قائلا :

« الأدب الاسلامى — فى صورته المتكاملة التى استعرضنا أسسها من قبل — شىء لم يوجد فى الانتاج البشرى ولكن هذا لا ينفى وجود بواكير متفرقة من هذا الأدب تنبىء بأنه ولد بالفعل ، وأنه فى طريقه الى التكامل والنضوج »(١٦) .

وهاك جامعيا من السعودية يعترف :

« والمتتبع للدراسات التى تناولت مفهوم الأدب الاسلامى وخصائصه ومقوماته ، وكذلك البحوث التى رشحت للندوات الثلاث (الندوة العالمية للأدب الاسلامى بالهند — ندوة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة — ندوة جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض) يلحظ أن المهتمين بالأدب الاسلامى لم يصلوا بعد الى بلورة مفهوم محدد للأدب الاسلامى ، نستثنى من تلك الدراسات المفهوم الذى طرحه فضيلة الشيخ « محمد قطب » فى كتابه (منهج الفن الاسلامى) وهو : التعبير الجميل عن الكون والحياة والانسان من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان .

غير أن الفن الذى تتوافر فيه عناصر المفهوم السابق ستصبح قليلة من الوجهة التطبيقية اذا ما قورنت بمادة الفنون الاسلامية الأخرى

التى لا تندرج تحت هذا المفهوم ، وسيقف الباحث أمام مادة كبيرة من الفنون الاسلامية قولية وغير قولية يبحث لها عن هوية وانتماء ، وهى صادرة عن فنانين مسلمين »[١٧] .

وذلك باحث ثالث يقول :

« وأدب الأمة الاسلامية يصلح بمجموعه أن يكون أدبا اسلاميا اذا حذفنا منه النصوص التى لا تتفق مع ما يسمح به الاسلام ، وهذه النصوص التى ينبغى ألا تدخل تحت عنوان (الأدب الاسلامى) لا تمثل من مجموع أدب المسلمين الا النسبة الأقل (هكذا !!!) لذلك فالأدب الاسلامى بوجه عام ، وأدب الدعوة بوجه خاص يحتاجان الى نظر جدى جديد حقا ويحتاجان الى اعادة كتابة تاريخهما مع فرز الأدب الاسلامى من عموم الأدب الاسلامى بمصنفات خاصة ابرازا لأدب الدعوة بغية الاستفادة منه فى مجالات الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة »[١٨] .

ويؤكد فى موطن آخر من كلامه فيطن :

« وحين نستعرض عامة الشعر العربى فاننا لا نحتاج أن نحذف منه الا أقل من ثلثه أو ربعه ليصير الباقى شعرا اسلاميا »[١٩] .

فهل يمكن أن يكون هناك مصطلح دقيق والحال كذلك بين ثلاثتهم ؟!! وكيف يتفق ذلك مع الدعوة التى ما تزال ماضية على قدم وساق الى فرز الأدب الاسلامى من الأدب العربى ؟

ثم أرأيت الى تلك المغامرة فى اصدار الحكم على النصوص التى يجب عزلها ، وكمها الذى لا يمثل الا نسبة من التراث تتراوح بين الربع والثلث .

ألا فليد لنا هذا الباحث الكريم من أين استقى الحكم الذى يقرره ،

وليقل لنا : منذ متى فرغ من قراءة الشعر العربى القديم ووقف على مظانه ؟

ان منطق البحث العلمى يرفض أن تساق الأحكام على تلك الشاكلة، ولو أن دعواه جاءت تأتنس ببعض دواوين الشعر الماثلة فى حقبة من العصور التاريخية للأدب لكان ثمة مندوحة بدلا من هذا الانسياب الذى لا يعرف سبيلا الى الدقة والتمحيص ..

على أن سريان الأحكام فى ذلك الاطار مما يقف له المناطقة بالمرصاد .. أقل من الربع أو الثلث ... فأو هذه جديرة وحدها بأن تعصف بتلك الرؤية ولا مراء .

واذا سلمنا — جدلا — بصحة هذا الكلام ودقته أفنجعل من ربع الأمة أو ثلثها شراذم أباديد !! .

وعندى أن هذه النظرات وما اليها مما يدور معها فى فلك لا يمكن أن تتقرر الا اذا أنعمنا النظر فى هوية التراث الذى أبدعته عقول الأمة العربية الاسلامية ، وهل من الأوفق أن تعده تراثا عربيا أو تراثا اسلاميا أو تراثا اسلاميا عربيا ؟ .

لقد أطلق بعض مفكرينا اسم « التراث العربى » على التراث العربى الاسلامى « على أساس أنه يشمل تراث كتاب مفكرين عرب لم يعتنقوا الاسلام ، وانما كانوا مسيحيين أو صابئة أو يهودا ، ويفضل « البعض » أن يسميه التراث الاسلامى ، لأن المراد بكلمة « الاسلامى » هنا هو المعنى الحضارى وليس الدينى ، فالتراث الاسلامى يعنى تراث الحضارة الاسلامية أو حضارة الشعوب التى كونت الامبراطورية الاسلامية بكل ما لأهل هذه البلاد من ديانات ، وعيب التسمية الأولى أنها لا تميز بين تراث العرب الجاهلى وتراثهم بعد الاسلام ، وعيب التسمية الثانية أنها تشمل تراثا اسلاميا غير عربى جاء ثمرة لحضارات

شعوب مسلمة لم تتعرب مثل مسلمى الهند وأندونيسيا ، ولذلك فنحن نفضل تسميته بالتراث العربى الاســلامى لتكون التسمية أكثر دقة فى الدلالة على تراث الشعوب التى تعربت فى ظل الحضارة التى ازدهرت بعد ظهور الاسلام »[٢٠] .

والذى لا خلاف عليه أن قضية (الأدب الاسلامى) قضية على المستوى الصاعد الذى ينبغى أن نحتشد له احتشادا وذلك يستتبع أن نتعلم كيف نتعامل معها فى روية ، ثم كيف يحتم علينا الموقف منها أن نتبصر مواقع أقدامنا فيها على الدرب حتى لا تزل أو تكبو ، فلكم يكون الزلل ــ وأستغفر الله ــ مدعاة الى تقويض موروثنا وتدميره ، وهــو ما نخشاه ونحذر عاقبته ..

فعلينا قبل أن ندلف الى تأصيل (مدلولها) أن نكون على ذكر من أن تحديد مفهوم أمثل للأدب الاسلامى دونه مشكلات كثــيرة تعترض الطريق ، وأن استيعاب تلك المشكلات ومواجهتها لا تكون الا بالدراسة المتأنية التى تنأى ــ بطبيعتها ــ عن الاعتســاف أو التعمل ، وجــل المشكلات يتصل برحم ماسة بموضوع « التراث » وجهود « التراثيين » فيه أولئك الذين أبلوا البلاء الحسن فى تعاطيه وتأصيله وتأطيره بالضوابط والمعايير التى صانته ــ بفضل الله ــ عن كل ما يشينه أو يرنق من صفائه ويغض من طلاوته ..

وأرجو ألا يتوهم متوهم بأن فى تكرار كلمــة « التراث » حينا ، و « التراثيين » أحيانا مظنة التقديس « للتراث » ، أو اضفاء هالات منا على أصحابه ومبدعيه ، فأنا أعى جيدا أن كل انسان يؤخذ منه ويرد عليه الا المعصوم صلى الله وسلم عليه ، ولكنى ــ فى المقابل ــ أدرك تماما عن طريق التمرس بالتراث ومعايشته أن حضور العقلية العربية فى

بناء صرح النقد كان مصقولا فى ابداعه الى حد يبهر العالم والمتذوق ، ويسترعى انتباه كل منهما ...

أو ترون أن أسماء الأصمعى ، وأبى عمرو بن العلاء ، وابن سلام الجمحى ، والجاحظ ، وأبى بكر الصولى ، والقاضى الجرجانى وغيرها وغيرها ، تسهم فى ترسيخ التراث النقدى اسهاما عملاقا ، ثم نجعل منها نحن كما مهملا ؟ فنبادر الى الطعن عليهم لأن لهم من النظرات ما يخالف مفهومنا الذى ندين به !!! وهل من الولاء أن ننال من تلك الرموز أو من بعضها وليس لأحدنا بالغا ما بلغت مكانته ومنزلته معشار ما لكل فى التقصى والاستقراء والالمام الواسع ؟

أرونى واحدا بل قافلة استطاعت أن تؤلف أو تصنف كتابا ككتاب « الأغانى » أو « معجم الأدباء » أو « صبح الأعشى » من أمثال هذه الموسوعات الضخمة التى نقتات عليها ، ثم ننعى على أصحابها ، ظنا منا بأننا أصبحنا فى مستوى يؤهل للانتقاص منهم ، ونقض آرائهم على النحو الذى يترقرق فى مباحثنا ...

ومرة أخرى لست — فى هذا — أدعو الى تقديس هؤلاء ومن شاكلهم بيد أننى أدعو الى قراءة هؤلاء قراءة مستبطنة والتلبث ازاء ما جادت به قرائحهم الموهوبة ومسحه مسحا شاملا ، فحينئذ يرقى الدارس الى مقارعتهم ومطارحتهم ، أما أن يكون سبيلنا فى التصدى لآرائهم التعويل على تفاريق أو نتف وقعنا عليها فذلك هو الاستخذاء الذى يقضى بأن نكبح فى دراساتنا شرة النقد التى تحلو لعديد من الكاتبين والباحثين ..

نعم ان علينا أن نكون ايقاظا لما يلى :

١ — مدى ارتباط شعر القيم الانسانية والخلقية الذى يعكسه الشعر العربى الجاهلى بقصية الأدب الاسلامى . أنا أعرف سلفا أن

هذا معنى قد يثير الغرابة فى النفوس ، وليس بمستبعد أن يجبهنى هذا التساؤل :

وما العلاقة بين شعر (أى شعر) للجاهلية ، والأدب الاسلامى الذى نؤصل مفهومه ؟

وهنا سأعود بالقضية الى ما سبق أن قررته منذ قليل من أن تجلية القضايا الشائكة عادة ما تحتاج الى الريث ، كما تحتاج الى الافادة .. ومن المحاذير عندئذ أن يكون ما شاع حول هذه القضية أو تلك غـدا قبوله أمرا من البدائه أو المسلمات ..

ومن الضرورى أن يكون واردا فى تلك القضية ما ينخل الشـعر الجاهلى من أنماط لالاءة تتمحض لتصوير الفضائل والقيم الخلقيـة ، كقول (الشنفرى) فى زوجه (أميمة) :

لقد أعجبتنى لا سـقوطا قناعها
اذا ما مشـت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها
لجارتهـا اذا الهـدية قلـت
تحل بمنجاة من اللوم بيتهـا
اذا ما بيـوت بالملامة حلـت
كأن لهـا فى الأرض نسيا نقصه
على أمهـا وان تكلمك تبـلت
أميمة لا يخزى نثاها حليلهـا
اذا ذكر النسـوان عفت وجلت
اذا هو أمسى آب قرة عينـه
مآب السعيد لم يسل أين ظلت[٢١]

أو التى تعكس بعض المعانى الانسانية النبيلة كهـاته التى تتردد

فيما سمى بالمنصفات من الشعر الجاهلى ، وفيها يتسامى شاعر القبيلة فيأبى الا أن يتطامن للحق ، حيث يشهد لمناوئيها — فى ميدان الحرب والضرب — بالندية أو الفوقية ، ويمضى فيسجل فى أمانة ونصفة وتجرد مآثر القبيلة المعادية ، وليس من شك فى أن ذلك وحده مسلك فذ فى ميدان مجاهدة النفس ، وكسر غلوائها ، وهدهدة ما سكن فى بؤرتها من عصبية قبلية جارفة طاغية ، على النحو الذى تطالعنا به أبيات « المفضل النكرى » :

بأن هزيزنا يوم التقينا
هزيز اباءة فيها حريق
بكل قراره وبكل ريع
بنان فتى وجمجمة فليق
وكم من سيد منا ومنهم
بذى الطرفاء منطقة شهيق
بكل مجالة غادرت خرقا
من الفتيان مبسمه رقيق
فأشبعنا السباع وأشبعوها
فراحت كلها تئق يفوق
تركنا العرج عاكفة عليهم
وللغربان من شبع نغيق
فأبكينا نساءهم وأبكوا
نساء ما يسوغ لهن ريق
يجاوبن النياح بكل فجر
فقد صحلت من النوح الحلوق[٣٣]

والسؤال الملحاح : أيمكن أن نقيم بين هذه الأبيات ومثيلاتها والشعر الاسلامى شابكة أو علاقة .

ومعلوم أنها موصولة العرى بالشعر الجاهلى لحمة وسدى ، فلم تصدر عما يصدر عنه الشعر الاسلامى من تصور يفعم أحاسيسه ويترع كيانه ، الأمر الذى يشكل من قضية الأدب الاسلامى — بعامة — ما يشكل السواد من العين ؟

وبدهى أن تكون الاجابة بالنفى القاطع ... فمن المؤكد أن هـذه الأنماط من الشعر العربى الجاهلى ليس غير .

ويقودنا السؤال الماضى الى سؤال آخر ينبثق عنه : وهل من الحتم أن يكون الأديب أو الشاعر مسلما ؟ وهب أن شـاعرا مسلما عرض لما تنطوى عليه الأبيات السابقة ، ففيم اختلاف المقومات الفنية فى شعره — ولم نشق عن قلبه — عما عبر عنه الجاهلى !!! .

ثم كيف يقف المتلقى ازاءها وهى تترامى الى سمعه ، أو تصادفه غير معزورة الى قائلها ، وفى الشعر العربى — على امتداد حقبه — أبيات من هذا القبيل ، بل وقصائد مجهولة لعدد من المجاهيل ، هل له أن يبادر برفضها حتى يكشف عن هوية صاحبها وانتمائه ؟ ودون ذلك خرط القتاد كما يقولون !!! .

ولم نذهب بعيدا ومشاهد الحياة الدوارة يرى فيها مسلم ، قطع على نفسه عهدا أو وعدا ، ويرى آخر الى جانبه لا ينتمى الى الاسلام يبر الأول بما عاهد عليه نفسه ، كما يبر ثانيهما بهذا الخلق المأنوس لديه ، ومن العبث العابث أن يستقر فى الوجدان — لحظتئذ — أن الأول كان صادقا .. وأن الآخر غدر فى عهده ، أو خاس فى وعده ...

وأمثال هذه المرائى كثيرة فى باب : الأمانة ، والعدل ، واتقـان العمل ، وانضباط السلوك ... الى آخره .

وأحسب أن تلك المعانى وما يدانيها كانت وراء نظرة الأسـتاذ (محمد قطب) العميقة البعيدة ، التى عبر عنها بقوله :

« والفن الاسلامى ينبغى أن يصدر عن فنان مسلم أى « انسان » تكيفت نفسه ذلك التكيف الخاص الذى يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة والواقع بمعناه الكبير ، وزود بالقدرة على مجال التعبير ، وهو فى الوقت ذاته انسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الاسلامى، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور ، ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التى عاناها فى صورة جميلة موحية •

وهذا هــو الذى لم يتيسر من قبــل فى الأدب العربى لسبب من الأسباب ، والذى توجد اليوم منه بواكير متفرقة تنبىء بأنه قــد ولد بالفعل ، وأنه فى طريقه الى التكامل والنضوج ، ولكنه — بهذا المعنى — ليس وقفا على المسلمين وحدهم من الفنانين •••

صحيح أن المسلم الحق — بطبيعة اسلامه — يجد الطريق أمامه ميسرا حين يوهب الموهبة الفنية ، لأنه يعيش المفاهيم الاسلامية بالفعل ، وينفعل بالأشياء والأشخاص والأحداث من خلال هذه المفاهيم دون جهد مبذول منه ولا افتعال ، بل دون قصد واع منه الى هذا الانفعال •

وصحيح — من ناحية أخرى — أن المسلم وحده هو الذى تتسع نفسه للتصور الاسلامى الكامل لأن هذا التصور هو المقتضى الطبيعى المباشر لحقيقة اسلامه ، ولأن الانسان لا يصل الى هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على طريقة الاسلام ، وبمفهوم الاسلام •

ومع ذلك فان التصور الفنى الاسلامى للكون والحياة والانسان هو تصور كونى انسانى مفتوح للبشرية كلها لأنه يخاطب الانسان من حيث هو انسان ، ويلتقى معه كذلك من حيث هو انسان ، ومن ثم يستطيع أى انسان أن يتجاوب مع هذا التعبير ، ويتلقى الحياة من خلاله بمقــدار

ما تطيق نفسه هذا التلقى وذلك التجاوب ، فيلتقى مع الفن الاسلامى بذلك المقدار •

ومن أجل ذلك لم نقصر النماذج التى أخذناها (والكلام ما يزال للأستاذ محمد قطب) على بواكير الأدب الاسلامى على المسلمين من الفنانين ، بل اخترنا الى جانبها نماذج من فنانين غير مسلمين ، لأنها تلتقى التقاء جزئيا على الأقل مع التصور الاسلامى ، وتصلح بذلك أن تسير مع المنهج الاسلامى للفن فى هذه الحدود[٢٣] •

ومن الشبهات التى يعتد بها المعارضون للشعر الاسلامى — بصفة خاصة — طائفة الآراء التى استفاضت فى نقدنا العربى القديم من رجال لا ترقى اليهم غميزة فى علم أو دين •

ومن هؤلاء مثلا :

أبو عمرو بن العلاء ت : ١٥٤ هـ والأصمعى ت : ٢١٠ هـ وابن سلام الجمحى ت : ٢٣٢ هـ ، وأبو بكر الصولى ت : ٣٣٥ هـ ، والقاضى الجرجانى ت : ٣٩٢ هـ ، والثعالبى ت : ٤٢٩ هـ ، وغيرهم من أولئك الذين استبطنوا أنماط الابداع ، وسبروا أغوارها الفنية التشكيلية ، وفاضلوا بين ألوانها انطلاقا من معايشة حميمة للغة والأدب •

فأما مقولة (أبى عمرو بن العلاء) — وهو أحد القراء السبعة — عن (لبيد بن ربيعة العامرى) فقد تمثلت فى ذلك الرأى الذى جاء فى الموشح للمزربانى فى قوله :

« ما أحد أحب الى شعرا من « لبيد بن ربيعة » لذكره الله عز وجل ولاسلامه ، ولذكره الدين والخير ، ولكن شعره رحى بزر »[٢٤] •

ويأتى حديث « الأصمعى » فى هذا الباب معززا لما جاء فى كلام أستاذه (أبى عمرو بن العلاء) حيث أخبر (ابن دريد) قال : أخبرنا

أبو قاسم قال : قال الأصمعى : أن شعر (لبيد) كأنه طيلسان طبرى أى أنه جيد الصنعة وليست له حلاوة ، فقلت له : أفحل هو ؟ قال : ليس بفحل ، قال : أبو حاتم قال لى مرة : « كان رجلا صالحا » ، كأنه ينفى عنه جودة الشعر[٣٥] .

ناهيك عن نظرته التى شاعت فيما يتعلق بشعر (حسان بن ثابت) وهى التى يردد فيها :

طريق الشعر اذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن (حسان ابن ثابت) كان علما فى الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره فى باب الخير من مراثى النبى صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل (امرىء القيس) و (زهير) و (النابغة) من صفات الديار والرجل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فاذا أدخلته فى باب الخير لان[٣٦] .

وفيما يدرأ أبو بكر الصولى اتهام « أبى تمام » بالكفر يقول فى هذا المنحى :

« وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه ، وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره ، وتقبيح حسنه ، وما ظننت أن كفرا ينقص من شعره ، ولا أن ايمانا يزيد فيه[٣٧] .

فاذا انتقلنا الى (القاضى الجرجانى) ألفيناه فى معرض الدفاع عن (أبى الطيب المتنبى) يصرح :

« فلو كانت الديانة عارا على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم (أبى نواس) من الدواوين ، ويحذف ذكره اذا عدت الطبقات ، وأولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الأمة

عليه بالكفر ، ولوجب أن يكون (كعب بن زهير) و (وابن الزبعرى) وأحزابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين ، ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر »[٢٨] .

وها هو ذا الثعالبى يضيف ضميمة الى ما قال السابقون تبدو فى أن يكون للاسلام حقه من الاجلال والتقديس ، لكن ذلك ليس معيارا لتقديم الشاعر ، كما أن سوء الاعتقاد لا يقف حائلا فى أفضلية شاعر على سواه .. يقول :

« على أن الديانة ليست عارا على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر ، ولكن للاسلام حقه من الاجلال الذى لا يسوغ الاخلال به قولا وفعلا ، نظما ونثرا »[٢٩] .

ونتجاوز كل هذه الآراء لنطل اطلالة على منهج « ابن سلام الجمحى » فى تقسيمه الشعراء الى طبقات ، فمنها نتبين أنه ما أعار اهتماما الى السلوك الشخصى للشاعر قدر اهتمامه بالجانب الفنى فى شعره .

والدليل على ذلك أنه وضع كلا من (امرىء القيس) و (النابغة) فى الطبقة الأولى من طبقات الجاهليين ، وكلاهما شاعر كان له القدح المعلى فى التبطل واللهو(*) .

ومن الحق أن نقرر أن بعض المنافحين عن الأدب الاسلامى — فيما يبدو — لم يلم بكل تلك الآراء ، فمضى يدور حول رأى (الأصمعى) فى (حسان بن ثابت) مرة ، وأخرى حول رأى (القاضى الجرجانى) فقط .

(*) انظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى بتحقيق العلامة : محمود شاكر .

ومعلوم أن الدفاع عن الأدب الاسلامى انما يكون مبتسرا اذا لم يستوعب الآراء جميعها ، على أن عددا من وجهات النظر التى أرادت أن تدحض رأى (الأصمعى) فى (حســـان) ، وتجهض رؤية (القاضى الجرجانى) السالفة جاءت وجهة النظر فيها انتصارا لموقف يتبناه دون انعام فكر فبدت واهية أو واهنة ..

ونسوق بعض الأمثلة دعما لما يتراءى لنا :

يقول د٠أحمد محمد على (عبـــده زايد) يشايع د٠محمد طاهر درويش فى الرد على مقولة (الأصمعى) فى (حسان بن ثابت) :

وليس صحيحا ... أن الشعر بابه الشر فاذا أدخلته الخير لان ... فقوة الشعر وصفته وشدته وليونته لا ترجع الى أدوات الشاعر وصفته وامتلاء نفسه بموضوعه ووضوح رؤيته فيه شرا كان ذلك أو خيرا « واذا وافقنا الأصمعى على أن انصراف الشاعر عن سبيل الفحول الجاهليين مؤد بشعره الى الضعف والهبـــوط لزم من ذلك ، أن كل شاعر التزم فى شعره الحدود الاسلامية فى ذلك الزمن أو بعده انتهى شعره الى السقوط وهو ما لم يقل به أحد ، وما ينقضه الواقع »(٣٠) .

وهذه الردود التى تتجاوب مع الأدب الاسلامى ـــ مع مافى بعضها من اخلاص وغيره ـــ يعوزها كثير من التمحيص ، ذلك أنه اذا صح جدلا ما يقولون فعلى أى نحو يفهمونه بقية النصوص الأخرى ، وهى نصوص لا تقبل الاتساق ، أو حمل الكلمات قسرا على ما يريدون ؟ .

فمن الآفة العلمية السائدة فى الدراسات الأدبية والنقدية الدخول على القضيـــة المطروحة من خلال موقف سابق عليها ، يعيش فى قرارة الباحث ...

والذى عليه المنهج المستقيم أن يأتى الرد شاملا ، بحيث لا يرتب

رؤية أو حكما على « نص » ، ثم يدع النصوص الباقية التى تتراوح بين التنظير تارة والتطبيق طورا تقوض عمله ، أو تعصف بما فيه ، والا فماذا يرى الرادون فى كلام د٠احسان عباس فى هذا الصدد اذ يقول :

« من العجيب أن الأصمعى الذى كان يتحرج تدينا من رواية أى شعر فيه ذكر للأنواء (لقوله صلى الله عليه وسلم : اذا ذكرت النجوم فأمسكوا) يقيم حدا فاصلا بين الشعر والدين ، ويراهما عالمين منفصلين لا يتصل أحدهما بالآخر ، وفى اتصالهما حيف على الشعر نفسه » ، ثم يعلق على كلام « الأصمعى » : طريق الشعر ٠٠٠ الخ بقوله :

« ففى هذا النص القيم الغريب نجد (الأصمعى) قد قصر مجال الشعر على الفنون الدنيـــوية التى كانت سائدة فى الجاهليـــة ، وحدد موضوعاته التى تصلح له ، ويصـــلح لها ، وجعل صفة « اللين » عالقة بالموضوعات المتصلة بالخير والدين ، فلدينا هنا (والكلام له) اصطلاحان غامضان بعض الغموض هما « اللين » و « الخير) ، فأما اللين فقد وضع «الأصمعى» ازاءه ــ «طريقةالفحول» ثم لم يتجاوز حدود الموضوع ، ولكن كلمة « اللين » سترد عند بعض النقاد مرادفة لضعف الأسر ، يقول «ابن سلام» : « وأشعار قريش أشعار فيها لين فتشكل بعض الأشكال، ولا بأس أن نفهمها على النحو نفسه عند الأصمعى ، وأما كلمة الخير ، فليس يقابلها لفظة « الشر » وان روى قوله « الأصمعى » من بعد :

« الشعر نكد بابه الشر » ، وظنى أن هذه الرواية غير دقيقة ، وأنها ترجمة متأخرة بعض الشىء لمفهوم قول « الأصمعى » ؛ وانما الخير عند « الأصمعى يعنى طلب الثواب الأخروى » ، أو ما يتصل اتصالا وثيقا بالناحيـــة الدينية ، ويقابله ــ حينئذ ــ « دنيوية » الشعـــر واتصاله بالصراع الانسانى فى هذه الحياة،فالليونة والانحياز الى الخير مضادان للفحولة »(٣١) ٠

وفى تقديرنا أن هذا كلام مؤسس علميـا ، غير مشوب بدفق من حماس ، ولا هو صادر عن رؤية ، أو موقف ، فسبيله فى تلك المناقشة الواعية استلهام صنيع التراثيين والنفاذ الى مكان الحق بالدليل الدامغ ، والحجة القوية ..

ويرشح لنظرة د.احسان عباس ويدعمها ما نطالعه عند «ابن سلام الجمحى» حيث أبى الا أن ينظـم « الأخطل » فى الطبقـة الأولى من « الاسلاميين » ، وهو النصرانى الذى يقطر بعض شعره مروقا وتمردا على الاسـلام ، يجاهر بهما ولا يبالى مما نعف عن ذكره ، ونمسك عن بيانه(*) .

على أن تعداد موضـوعات الشعر — فى كلام الأصمعى — اخاله مقصودا ، فاذا استطاع الشاعر أن يحكم موضوعه على الطريقة التى جرى عليها شعر الفحول من الجاهليين كان ذلك — ولا ريب — أمارة من أمارات الفوقية فى شعره .

وهذا « عكرمة بن جرير » يسـأل أباه عن الشعراء فيكون جوابه « الأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر »(٣٢) .

يدل على هذا أن أغراض الشعر التى انثالت فى كلام « الأصمعى » تختلف عن الأغراض التى ذهب اليها « ابن رشـيق » برواية عن أحد النقاد :

« الشعر أربعة أصناف ، فشعر هو خير كله ، وذلك ما كان فى باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به الخير وما أشبـه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول فى الأوصاف والنعوت والتشبيه،

(*) انظر : طبقات فحول الشعراء ١/٤٥ وما بعدها — تحقيق الشيخ محمود شاكر / مطبعة المدنى .

وما يفتن به من المعـانى والآداب ، وشعر هو شر كله وذلك الهجاء ، وما تسرع به الشاعر الى أعراض الناس ، وشعر يتكسب به ، وذلك أن يحمل الى كل سـوق ما ينفق فيها ، ويخاطب كل انسان من حيث هو ، ويأتى اليه من جهة فهمه »(٣٣) .

فجلى أن « الأصمعى » قسم أغراض الشعر تقسيما فنيا بما يلائم نظرته ، ويوائم اتجاهه على عكس أغراض الشعـر التى جاءت فى كلام « ابن رشيق » فواضح أنها ذات صلة بالجانب الأخلاقى وهو ما يترقرق فى سطوره ..

وشىء آخر يؤكده المعارضـون للأدب الاسلامى أن التزامن بين « الأصمعى » و « ابن سلام » ينهض دليـلا يؤيد ما ساقه د.احسان عباس فى تحليل مقولة « الأصمعى » واكتناهها ، وكأن مسـألة اطراح «الدين» واغفاله من تقويم الشعر كانت من المواضعات النقدية وقتئذ..

ولا يفهم من صنيع « ابن سلام الجمحى » أنه أخر « الاسلاميين » أو أنه طاعن من شعرهم ، كلا ، وآية ذلك أن ثمة من « الاسلاميين » من احتل الطبقة الأولى ، وفيهم من تنزل شعره عن طبقة الصدارة ، فكان فى المرتبة الثانية ، أو الثالثة .. الى آخره على ما يعكسه كتابه الذائع « طبقات فحول الشعراء » .

وبهذا التلاقى يصبح الاتساق قائما بين التنظير والتطبيق ، أعنى تنظير الأصمعى وتطبيق « ابن سلام » ، فمن أثبت من « الاسلاميين » أن شعره مساوق للفحول من الجاهليين ومضى على نهجهم فيه كان هو المقدم ، ومن لم يستطع أن يلحق بالفحول منهم كان شعره — بالطبع — ضعيف الأسر لا يقوى على أن ينافسـه فى مضمار واحد أو حلبـة معينة ...

ومن يدرى ، فلعل الأصمعى استهدف ذكر الأغراض الشعرية التى ضمنها مقولته ، اشعارا منه بالتجاوب مع الفكر النقدى السائد آنذاك وهو أن الوقوف على الموضـــوع هو لب الانطلاقة فى ميدان الابداع ، وليس فى هذا مناط لغرابة ، فلكم أفاض القدامى فى الدوران حول تلك الفكرة ، مما ينم عن أصـــالة الفكر النقدى لدى « الأصـــمعى » الذى استثبته الشعـــراء والنقاد لعصره ، فاذا تهيأ لشـــاعر صناع أن يجد موضوعه ، وأن يعمل فيه ملكته وأدواته الفنية تبوأت قصيدته مكانا رفيعا بلا مراء •

« يذكرنا هذا بقول « سلامة بن جندل » لتميم وقد طلبت منه أن يمدحهم بشعره « افعلوا حتى أثنى عليكم » •

ويذكرنا ــ أيضا ــ بالرواية القائلة ان « النابغة الجعدى أفحم أربعين عاما ثم ان « بنى جعدة » عزوا وظفروا فاستخفه الفرح فرام القريض فذل له ما استصعب عليـــه ، فقالوا : والله لنحن باطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا » •

وكذلك ما روى (أبو عبيـــدة) من أن (رؤبة) صاح فى بعض الحروب التى كانت بين تميم والأزد : يا معشر تميم أطلقوا من لسانى ، وتفسيره : هيئوا لى موضوعا أقول الشعر فيـــه ، وقد يكون الموضوع أحيانا أعظم من وســـائل التعبير كما حدث لحسان بن ثابت حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وقد أصاب ــ وهو يعتذر عن عجزه عن رثاء الرسول الكريم حين سئل : ما بالك لم ترث رسول الله صلى الله عليه وسلم(*) فأجاب قائلا : جلت المصيبة عن المرثية •••

(*) هذا كلام سنعرض له فيما بعد خلال هذا البحث ، وقد يكون رد (حسان) منطبقا على غيره من الشعراء المسلمين الذين ــ اذهلتهم المصيبة ــ فيما يبدو ــ عن المشاركة بالقريض فى رثاء النبى صلى الله عليه وسلم .

فالشعـــر أو نوع معين من الشعر لدى كثير من الشعـــراء قوامه الموضوع ، فان لم يكن ــ ثمة ــ موضوع ، فالشعر يبقى امكانا كامنا ينتظر مادته التى يتجسد خلالها ، وخير ما قيل فى هذا الشأن ما روى من أن الفرزدق وقد قيل له «أحسن الكميت فى مدائحه فى تلك الهاشميات، قال : وجد آجرا وجصافبنى »(٣٤) .

كان على هؤلاء الذين ينعون على « الأصمعى » استرساله فى ذكر الأغراض أو الموضوعات الشعرية ألا يصـــادروا على رأيه الا ريثما يدركون أن (الأصمعى) لا يصدر فيما يرى عن عشوائية ، أو فراغ أو غفلة ، وهو « ليس بالكم الهين عند الحديث عن الشعر »(٣٥) .

فذلك آثر فى دنيـــا المعارف المؤهلة من مجرد كلام يســـوقه بعض الدارسين ، رغبة هادرة منهم فيما يودون الوصول اليه ولو كان ذلك على حســـاب هاته المعطيات التى تشكل من تراثنا خطا بارزا ، تبدده عجلة هؤلاء ، وتأتى عليه النظرة الوسنانة فى تميز حذر أو تحفظ ..

والى ذاك فقد يفجر كلام «الأصمعى» فهما آخر يختلف عما قلناه جملة وتفصيلا وحيث تعددت وجهات النظر فى نص واحد ، فمن المنهجية ألا تطوع العبارة لهوى المؤيدين للأدب الاسلامى مرة ، أو الرافضين له مرة أخرى ...

وربما كان فهم هذه المقولات وما اليها على الوجه الساطع منوطا بمقابلة الآراء النقدية ــ آنئذ ــ بعضها ببعض ، فذلك عندى خير من المغامرة التى لا تجد لها مكانا فى الدراسة العلمية الجادة .

ويرفع المؤيدين للأدب الاسلامى شعارات وأدلة أخرى ، تدور فى جملتها على النحو الآتى :

أولا : أن « الاسلام » أعز علينا ــ نحن المسلمين ــ من تراث يحفل بهذه الأباطيل والأضاليل ، وأن كلمة الاسلام تجب كل تلك الآراء وتجعلها بددا •

ثانيا : وأن الفاروق (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه أثنى على (زهير بن أبى سلمى) بلفتة نقدية نقلها « ابن قتيبة » فى قوله :

« ويروى عن (عمر بن الخطاب) أنه قال : أنشدونى لأشعر شعرائكم ، قيل : ومن هو ؟ قال : زهير ، قيل : وبم صار كذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بين القول ، ولا يتبع حوشى الكلام ، ولا يمدح الرجل الا بما فيه »[٣٦] •

ثالثا : وأن (الفاروق عمر) ــ كذلك ــ عزل بعض ولاته لتبذله فى شعره حين وصف الخمر وحمياها ، وطلب الى نديمه أن يناوله اياها ليعاقرها ••• فكانت العقوبة الرادعة جزاء وفاقا على ما قارفه ، أو صدر عنه •

رابعا : من الثابت ــ أيضا ــ أن (عمر) جلد (أبامحجن الثقفى) وزاد فنفاه من «المدينة» لأن الخمر داعبت شاعريته ، فاحتساها مرسلا لحنه الأغن فى الهيام بها ، والاصرار عليها وتأمل قوله :

ضربت فلم أجزع ولم أك جازعا
لحادث دهر فى الحكومة جائر
وانى لذو صبر وقد مات اخوتى
ولست عن الصهباء يوما بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها
فخلانها يبكون حول المعاصر[٣٧]

خامسا : ولم يقف (الفاروق) رضى الله عنه عند هذا الحد

من العقوبة مع بعض الشعراء كـ « سحيم عبـد بنى الحسحاس » بل تجاوزها ـ فى رواية ـ الى قتله ، وقد سمعه ينشد :

فلقد تحدر من جبـين فتاتكم
عرق على ظهر الفـراش وطيب

لما ورد فيها من معان مكشوفة تهتك ستر الحياء ، وتعلن بالاقذاع المفضوح ، والخنا السافر ، وقبله :

شدوا وثاق العبد لا يفلتكم
ان الحياة من الممات قريب[٣٨]

سادسا : وأن المعايير النقدية الأخلاقية فى التراث كثيرا ما تسقط أمثال تلك الأنماط الساقطة من الشعر وحول هذه الأدلة نؤكد أن من يقبل «الأدب الاسلامى» ، ومن يعارضه معارضة علمية يلتفون حول الاسلام بفضل الله ، بل انى لأعرف فى بعض المعارضين اخلاصا غيورا ، ومسلكا اسلاميا نظيفا ، لا يسمح لهم بالمتاجرة باسم الاسلام أو المزايدة فيه ، غاية الأمر أن القضـية لم تنضج عندهم بالقدر الذى يثلج صدورهم ، فاذا حاك فى نفوسهم طائف من تردد فى قبـول القضية فلأن قسمات القضـية ما تزال غائمة أو حائرة ، ولأنهم يستشعرون أن الكتابة التى تبنت قضية الدفاع عن الأدب الاسـلامى والدعوة اليه ينقصها الكثير الكاثر من الأدلة الحاسمة وهى أدلة بوسعها هدهدة ما فيهـم من تطلع لتجلية القضيـة ، وانقشاع ما عليها من أسـتار وحجب ، فأما أن تظل قضايانا العلمية رهنا بالعواطف الغلابة ، أو انتصارا لموقف معين فذلك ما يغصون به ..

نعم ان الاسـلام أعز علينا جميعا ـ نحن المسلمين ـ من النفس والنفيس ، ولكن الاسلام ـ منذ البداية ـ اقترن بالعربية التى كانت وعاء للقـرآن الكريم ، فشرفت به من قـرون موغلة فى الزمن ، فاذا

افترضنا — والحالة كذلك — أن تراثنا الفكرى والنقدى ملطخ بالعار أو الشنار فاننا بهذا الافتراض ننقل القضية من ساحة الى ساحة مماثلة لها مساس بالاسلام والعقلية العربية معا ، فلم الحفاوة بذلك ؟ وماذا نفيد غير الوخز بالشوك ؟ ، وهل يضير الاسلام أن عبر عنه شعراؤه بصورة أو بأخرى !! ، دعك من الابداع الفنى الذى يلهث وراءه الفريقان : المؤيد والمعارض بلا استثناء ••

لشد ما أعجبتنى كلمات الأستاذ (وليد الأعظمى) فى كتابه (شاعر الاسلام حسان بن ثابت) :

« ان « حسان بن ثابت » ترك ما كان عليه من أمر الشعر الجاهلى وجدد أسلوبه ، ولم ير فى ذلك بأســا أن يهرم شعره ويلين ، فان ذلك سهل ميســور فى سبيل المبدأ والعقيدة التى اعتنقها ، وأصــبح لسانها المدافع عنها •

وليت شعرى من الذى رضى من أصحاب المبادىء من الشعراء أن يلين أدبه وأن تنماع شخصيته من أجل فكره وعقيدته •••

أرونى شاعرا واحدا رضى أن يقف شعره كله على فكرته فلا يفكر فى سواها ، ولا يتكلم الا بها ، ولا يصرف فؤاده عنها من ليل أو نهار •

كل هذا قد صنعه (حســان) من أجل الاسلام العزيز ، طيبة به نفســه ، مسرورا به ضميره ، لا يبتغى بذلك جزاء من أحــد من الناس ولا سمعة ، بل كان كما يقول : « وعند الله فى ذلك الجزاء »)[٣٩] •

ومن ثم يصبح اللغط فى التراث ، أو رميه بالمثالب قضية لا تخدم عددا من المتحفزين والمتحمسين للأدب الاسلامى من هذا المنظور الذى يذهبون اليه •

هذا فيما يخص الدليل الأول فى كلامهم •

ومن حيث النظرة الثانيـــة التى تتصل بـ (عمـــر بن الخطاب) ، واطرائه شعر (زهير) بوسعنا أن ننفذ اليها بفهم سائغ بعيدا عن النمحل دون أن تكون تلك الرؤية باعثا على الملاحاة ، وربما كان ـــ للآمدى ـــ صاحب الموازنة ـــ رؤية ثاقبـــة ، ذلك أنه عقب على كلام « الفاروق » بقوله :

« أراد أن لا يمدح السوقة بما يمدح به الملوك ، ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك وحملة السلاح ، فان الشاعر اذا فعل ذلك فقد وصف كل فريق بما ليس فيه »(٤٠) .

ولعل رؤية (الآمدى) هذه ـــ وهى رؤية مقبولة الى حد كبير ـــ تتيح للشاعر المبدع أن يفتن فى مديحه بما لا يخرجه عن دائرة الاعتدال الذى يرضاه « الفن » ويقسره ، وهنا تكون للأماديح المبالغة مكان فى عالم « الابداع » ، تلافيا لما يجرى فى نفوس رهط من المؤيدين للأدب الاسلامى ، اذ يروعهم أن ديوان الشعر العربى مفعم بالمدح الذى قد يصمه بالملق أو الكذب والزيف ، وهو ما تنأى عنـــه الكلمة الأدبية ، والصـــورة الشعرية الموصولتان بالنبع القـــرآنى ، والسنة النبـــوية المطهرة .

وفى التشيع لمذهب « الآمدى » فى فهم عبارة (الفاروق) وايثاره على مذهب أولئك الذين يرون أن قول (عمـــر) « ولا يمدح الرجل الا بما فيه » يعنى أن (زهيرا) كان لا يخرج عن السمات والأوصاف التى تتجسد فى ممدوحه ، اشارة الى الالتزام بالصدق أو تحريه فى مواطن القول .. وأكاد أحس أن تأويل عبارة الفاروق على تلك الصورة الأخيرة يحجر واسعا ، ويفضى فى الوقت نفسه الى عدد من المشكلات التى تنجم وقتئذ ، ومنها كيف تتعامل مع الشعر العربى قديمه وحديثه والمدح غرض يطغى بشكل لافت على سائر الأغراض الأخرى بحيث تبقى خاملة أو متقازمة من دونه .

ومنها أيضا أن التزام الصدق الحرفى يقمع فى الشاعر المادح الرغبة فى الانطلاق المقيـــد ، فاذا هو كالعدسة اللاقطة التى تلتقط ما أمامهـــا ، ولا تقدر على أن تشيع فيه حيوية أو حركة ، وما كان الشعر بهذه المثابة الجامدة ، أو الراكدة •

ولعل نقادنا القدامى فطنوا الى أن يؤطروا « المدح » وأن يضعوه فى صورة مثالية ، لما يستهدفه الشاعر المادح من تجاوز الواقع المعاش الى واقع آخر ، يظل على تتابع الأيام والحدثان نديا بما أضفاه الشاعر على ممدوحه من الصفات التى يعد كل منها رمزا لفضيلة أو قيمة فى عالم انسانى رفيع •

ولهذا أنحوا باللائمة على بعض أولئك الشعراء الذين مدحوا بعض الملوك ، فنقلوا واقعهم الحرفى دونما تحليق أو مبالغة •

ومن هؤلاء : « الأحوص » الذى قال فى هذا المعرض :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهـــم
مذق الحديث يقول ما لا يفعل

فقد أخذ النقاد عليه هذا المعنى « لأن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله ، كما تمدح العامة وانما تمدح بالاغراق والتفضيل بما لا يتســع غيرهم لبذله »(٤١) •

بينما رأوا أن المدح لا يسخو ولا يجود ولا يقع موقعه من الجودة الفنيـــة الا اذا انطلق الشاعر بجناحين رفافين الى مســـابح الخيال ، فيتجاوز الواقع المأنوس ، ولهذا كان قول شاعرهم :

له همـــم لا منتهى لكبـــارها
وهمته الصغـــرى أجل من الدهر
له راحـــة لو أن معشار جـــودها
على البر كان البر أندى من البحر(٤٢)

من قبيل المدح الجيد •

واذا كان الرثاء — كما يقـولون — مجلى من مجالى المديح فان الالتزام فيه — هو الآخر — بالواقع الحرفى قد يضائل من منزلة المرثى أو مكانته ، وقد يكون هذا المعنى هو الذى دفع « متمم بن نويرة » الى الكذب فى رثائه ، وهو ما يحمله قوله :

« ما كذبت فى شىء من صفته (يريد صفة أخيـه مالك) الا أنى وصفته خميص البطن وكان ذا بطن »(٤٣) •

« لا جرم أن ما ألجأه الى مثل هذا الكذب هو أن ملامح (مالك) كانت فى اطارها التاريخى تؤلف الصورة المثلى للفروسية البدوية ، غير أن عظم البطن ما كان منسجما مع هذه الصورة ، فأباح الشاعر لنفسه مفارقة الواقع التاريخى ، لتبدو الصورة كاملة ، منسجمة فى أجزائها غير متناثرة فتكتسب صدقها الفنى من انسجامها لا من حرفية واقعها(٤٤) •

وفى تلك التطوافة ما يبقى على مقولة الفاروق (عمر) رضى الله عنه ، ويبقى تراثنا الشعرى ، وفكرنا النقدى من الزراية أو الاستخفاف بأصحابه وذويه ، ولسنا معنيين — كماقديظن — بايجاد لون من التلفيق ، فغايتنا أبعد وأسمى ، وهى ألا يكون تراثنا مزقا متنافرة ، أو أخلاطا من آراء — لا تحقق الوئام قدر ما تحقق الخصام •

وقد يكون المبعث على الحقيقة أن تتسع الهوة بين قضية « الأدب الاسلامى » وقضية « التراث العربى » فيكون الخلط الشائه ، واللجاجة العمياء •

ونأتنس فى هذا المقام بكلمات وضـاءه للداعية الاسلامى الكبير الشيخ « محمد الغزالى » يقول فيها :

« ان الحاقدين على الاسـلام كثروا وعلا صياحهـم ، وطالت

لجاجتهم ، ويقع هذا فى بلادنا فى أيام نحسات تتعرض فيها الحركات الاسلامية لضروب الفتن وأنواع القمع ، مما يجعلنى أحس بأن هذا التزامن مقصود ، وأن الهجوم على قرية فى (فلسطين) قد يصحبه هجوم على حكم شرعى مقرر لجعل الأمة المحروبة تحار فى أى الجبهتين تقف للدفاع !! فهى توزع قواها المحدودة على جهات شتى ، ماذا نصنع ؟ لابد من الثبات فى موقف الحراسة ولن نتخلى عن ديننا مهما كثر المهاجمون ، وخبثت حيلهم ، وساندتهم قوى جلية أو خفية »[٤٥] .

وأما عن عزل سيدنا (عمر بن الخطاب) للنعمان بن عدى عامله على (نيسان) — من أرض البصرة — حين قال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها
نيسان يسقى فى زجاج وحنتم
اذا شئت غنتنى دهاقين قرية
ورقاصة تجذو على كل منسم
فان كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى
ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه
تنادمنا فى الجوسق المتهدم[٤٦]

فذلك أمر ثابت لا مجال فيه لتأويل أو بعد عن الجادة ، فعمر رضى الله عنه كان يلحق الشعراء ، وكلنا يعرف قصته مع «الحطيئة» ، وتهديده اياه بقطع لسانه ان استمرأ الهجاء واللغو فى أغراض المسلمين ، كما أننا نذكر موقعه من (المغيرة بن شعبة) حين أرسل اليه بالكوفة أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا فى الاسلام ونزل « المغيرة » على ماأراد « ابن الخطاب » ، ايمانا منه بخطر الكلمة يوم تكون سما زعافا ، أو داء عضالا ... كل أولئك مقطوع به تاريخيا .

كذلك فمن المقطوع به موقف (عمر) من (أبى محجن الثقفى) اذ كيف يقابله أمير المؤمنين بالعفو والصفح ، وهو مصر على معاقرة الخمر ومستهترا بها الى مدى بعيد ...

وهبه غير شاعر أكان من الجائز أن يغضى (عمر) عن حد من حدود الله !! ذلك ضرب من المستحيـــل .. فعمر اذا لم يتوان فى اقامة الحد عليه ، فنفيه عن المدينة انفاذا لأمر الله سبحانه ، وعبرة لغيره ممن تسول له نفسه أن يرتكب تلك الحماقة التى تشرب العقل أو تودى به ، غير أن المعارضين لقضية الأدب الاســلامى يحاولون أن يسوغوا ذلك بأن تلك المواقف العمرية لم يكن بد منها ، فاذا عزل (النعمان بن عدى) عامله على (نيسان) ، فذلك هو الحل ولا حل سواه ، لأن عامل (عمر) مختار من قبله ، ثم هو يمثل « عمر » فى الحياة العامة ، فهو يتكلم باسمه ويلبى ما يراه (الخليفة) ، وذلك ما يدفع الفاروق الى أن تكون قبضته عليه ضرورية ، وهل يتصور أن يغضى عمر ايما اغضـــاء عن هذه العقوبة أو يتهاون فيها وهو من هو صرامة فى دين الله ، وترسيخا له فى الأرض ، فلم يكن (عمر) ــ رضى الله عنه ــ بالخليفة الذى يمكنه أن يتراخى فى انزال العقوبة أو يتسمح فيها على الاطلاق .

لكنه ــ على الرغـــم من ذلك ــ لم يثمر تعقب (عمر) للشعـــراء الثمرة المتوقعة على طول الخط ، وكانت تلك هى النتيجة المرتقبة « فهناك أمور ينبغى أن تدخل فى الحسبان قد تدخلت لتغير من وجه هذه النتيجة تغييرا واضحا وهى :

أولا : أن الشعراء حتى من أعلن منهم قبول الاسلام ليسوا سواء فى الوقوف عند حدوده ، فبينما يضرب (لبيـــد) اضرابا تاما عن قول الشعر نرى شاعرا آخر كالحطيئة يضـــيق بالدعوة الجديدة وبالحصار الذى ضرب حوله وحول أمثاله من الشعراء ، ولا تكاد تندلع فتنة أهل

الردة حتى يصير بوقا من أبواقها ، ومهرجا يتقدم مواكبها ، مرددا أمثال قوله :

أطعنا رسـول الله اذ كان بيننا
فيالعبـاد الله ما لأبى بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده
فتلك لعمـر الله قاصمة الظهر

ويعـود الى الدين مع من عاد من المرتدين ، ولكنه لا ينسى أن الشعر بما فيه من مدح وهجاء وفخر ومناقضات هو بضاعته الرابحة ، وتجارته الناجحة ، ولذا لا يكاد يرى نوعا من المنافسـة والتفاخر بين (الزبرقان بن بدر) و (ابن عمه : بغيض بن عامر) حتى يزيده ضراوة واشتعالا بما ينشده فيه من أشعار ، ويعيش فى خضم هذه المعركة فى بلهنية من الرزق فى وقت كان مفروضا للناس أن يتناسوا نغمة التفاخر بالأحساب والتطاول بالأنساب •

ثانيـا : بدت حملة الدين على الشعر فى البداية غير جلية الأثر ، بدليـل أننا نلقى من الشعراء المشهورين أمثـال الحطيئة ، ومتمم بن نويرة ، وأبى ذؤيب الهذلى ، وأبى زبيد الطائى ، والشماخ بن ضرار وأخيه مزرد ، وكان هذا أمرا طبيعيا لأن المشار اليهم قضوا شطرا من حياتهم فى العهـد الجاهلى ، فكان لا مناص من مرور حقبـة زمنية لانقراض هذه الطائفة التى استوت على عرش الشعر ، الا اذا أرادت أن تحذو حذو (لبيد بن ربيعـة) وقد أضرب عن قول الشعر بمحض اختياره •

أما أولئك الذين ما برحوا يعتزون بفنهم فليس من السهل أن يكمم القانون أفواههم الا فى أضيق نطاق ، فكانوا أمام المحاولات العمـرية أشبه بالعيون الثرة كلما ألقيت عليها الحجارة والكمأ سلكت الى الحرية

طريقا جـديدا ، فقد كان الشعر فى صـدر هؤلاء القوم أشبه بالجذوة المتأججة التى هدأ أوارها وخمدت أنفاسا بما ألقاه عليها الاسـلام من رماد ، ولكن ما تكاد الحوادث تهب عليها حتى تذهب بذلك الرماد فتعود قوية فتية ذات تغيظ وزفير »(٤٧) .

فماذا لو بقى هذا الشعر فى تاريخنا الأدبى والنقـدى تراثا يروى وتردده الأجيال خالفا عن سالف ؟ .

وعلى ذكر (الفاروق عمر) وموقفه من الشعراء تأتى قصة « سحيم عبد بنى الحسحاس » وكيف أن (عمر) قتله لأبيات مكشوفة قالها ، سبق أن رددناها من قريب ، أو لهذه الأخرى التى أنشدها (عمر بن الخطاب) :

عمـيرة ودع أن تجهـزت غاديا
كفى الشيب والاسـلام للمرء ناهيا

فقال : لو قلت شعرك مثل هذا أعطيتك عليه ، فلما قال :

فبات وسـادانا الى علجانة
وحقف تهاداه الرياح تهـاديا
وهبت شمال آخر الليـل قرة
ولا ثوب الا درعها ورداثيا
فما زال يردى طيبـا من ثيابها
الى الحول حتى أنهج الثوب باليا(٤٨)

ومقتله — على ما روى من ذلك — خبر لا يطمأن اليه بحال ، ذلك أن فى مقتله روايات متعددة ، أطبقت معظمها على أنه لم يقتـل فى عهد (الفاروق) كما أن هذه الأبيات لم تكن سببا فى مصرعه .

يقول (ابن حجر العسقلانى) :

وروى (المرزبانى) فى ترجمته من طريق على بن زيد عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كفى بالاسلام والشيب للمرء ناهيا » •

فقال « أبو بكر » انما قال الشاعر : كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا ، فأعادها النبى صلى الله عليه وسلم كالأول ، فقال « أبو بكر » : أشهد انك لرسول الله ، وما علمناه الشعر وما ينبغى له •

وقال (عمر بن شبة) : قدم « سحيم » — بعد ذلك — على عمر فأنشده القصيدة ، أنبأنا بذلك معاذ بن جبل عن ابن عوف عن ابن سيرين ، قال : فقال له : لو قدمت الاسلام على الشيب لأجزتك ••

ثم يذكر بعدئذ :

وقد قيـــل : ان سحيما قتل فى خلافة (عثمان) ، ويقال ان سبب قتـــله أن امرأة من بنى الحسحاس أسرها بعض اليهود ، فاستخصها لنفسه ، وجعلها فى حصن له ، فبلغ ذلك سحيما فأخذته الغيرة ، فما زال يتحيل حتى تسور على اليهودى حصنه وخلص المرأة فأوصلها الى قومها، فأتته يوما فقالت له : يا سحيم : والله لوددت أنى قدرت على مكافأتك على تخليصى من اليهودى « فقـــال لها : والله انك لقادرة على ذلك ، وعرض لها بنفسها فاستحيت وذهبت ، ثم لقيته مرة أخرى فعرض لها بذلك فأطاعته وهويها ، وطفق يتغزل فيها ، وكان اسمها «سمية» ففطنوا له فقتلوه خشية العار عليهم بسبب « سمية »[٤٩] •

على أن هناك رواية أخرى كالتى ذكرها الأستاذ « عبـــد العزيز المهيمنى »[*] فى مقدمة ديوانه نقلا عن الخالدين ، فحواها أن قومه هم الذين كادوا له بعد أن أطال التشبيب بنسائهم فقتلوه •

(*) انظر مقدمة ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس فى المقدمة .

ويرى المعارضون أن استشهاد المؤيدين لقضية الأدب الاسلامى بهذه الواقعة ليس عليه سند يؤيده ، وفى تعدد الروايات السالفة على النحو الذى طرحناه ما يبطل مزاعم المؤيدين لا سيما ورواية مقتله على يدى (عمر) تتضاءل بجانب الروايات المتعددة التى تكاد تجمع على أن مقتل « سحيم » لم يكن فى عهد (عمر) رضى الله عنه •

وقد تكون وجهة المعارضين أقوى وأكد ، فما كان تأييد القضايا العلمية أو رفضها ليقوم على أدلة خافتة الصوت ، تبدو فى الاستناد الى رواية عارضتها روايات ما أكثرها ، وهو كلام له حيثيته العلمية ، ووجاهته المنطقية •

وعن الالتزام بالمعيار النقدى الخلقى نؤكد أن تراثنا — بفضل الله وحمده — اعتمد تلك المعايير فى الحكم على الأعمال الابداعية وتقويمها ، وقد كان الباقلانى صاحب الاعجاز القرآنى على رأس طائفة من النقاد ، رأت أن تجعل « المنعطف الأخلاقى » أساسا فى النظرة الى العمل المنقود •

وهؤلاء فيما يبدو بنوا رؤيتهم النقدية على قول الرسول الكريم :

« ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر(**) لحكمة » •

وقول الرسول الكريم ينطوى على غايات الشعر وأهدافه ، وفى وجازة النبى صلى الله عليه وسلم ما يكشف عن غايتين عظميين للشعر :

أولاهما : الغاية الفنية ، وأخراهما : الغاية الخلقية •

وهذا (ابن رشيق القيروانى) يجلى تينك الغايتين فى القول المأثور فيقول :

(**) جاءت رواية الحديث على اشكال مختلفة ومنها رواية (ابن عباس) : « ان من الشعر حكما ، ومن البيان سحرا » . مسند الامام احمد ٢٦٩/٢ ط : ٤ (١٩٨٣) طباعة المكتب الاسلامى بيروت .

فقرن البيان بالسحر فصاحة منه صلى الله عليه وسلم ، وجعل من الشعر حكما لأن السحر يخيل للانسان مالم يكن للطافته ، وحيلة صاحبه، وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل ، والباطل بصورة الحق لرقة معناه ، ولطف موقعه ، وأبلغ البيانين عند العلماء الشعر بلا مدافعة(٥٠) .

ويرى المعارضون لقضية « الأدب الاسلامى » أن انفصام الغاية الفنية عن الغاية الخلقية ليس له ما يقويه ، كما أنه لم تقم عليه قرينة ، فضلا عن أن الاحتكام الى المعايير النقدية الخلقية قد يجر علينا كثيرا من الويلات فى تنخل التراث وغربلته ، وقديما سرت أنفاس من هذا النقد الخلقى كانت وراء معاناة بعض الشعراء وبلائهم ، ومنهم (أبو العتاهية) الذى شنع عليه « منصور بن عمار » ورماه بالزندقة حين قال متغزلا :

ان الميلك رآك أحسن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقدرة نفسه حور الجنان على مثالك

وقال : أيصور الحور على مثال امرأة آدمية ، والله لا يحتاج الى مثال ؟ وأوقع هذا على ألسنة العامة فلقى منهم بلاء .

ثم ان الاحتكام الى ذلك المقياس الخلقى عرضة لاهتزاز أحكامه فى كثير من الأحيان اذا ألقى اليه الزمام ، لأن للعلاقة الخلقية بعدا فى مدى التلاقى بين سلوك الفنان وما ينادى به أدبه من مبادىء ، فكم من أديب دعا الى الوطنية وكان تصرفه غير برىء من الشهوات ، وكم من داعية لمبدأ يجعله مطية للذاته الخاصة ، ويخدع به الآخرين ، وكم من رافض لارادة الجماعة متخاذل عن نصرتها أو مصم أذنيه عن نداءات المستقبل متشبث بالجمود والتأخر ، هؤلاء جميعا حين نقيس فنهم معزولا عن

أشخاصهم قد نعجب به ، بل قد نحله مكانا رفيعا ، ولكننا حين ندخل شخصية المبدع فى الاعتبار فان النظرة الأخلاقية قد تملى فى هذا الأدب رأيا متحفظا ، ربما يختلف كثيرا عن الاعجاب المجرد »[٥١] •

وحتى لا يفتح ذلك بابا قد تجنى من ورائه الضياع يرى المعارضون أن لا حاجة الى العدوان على التاريخ الأدبى والنقدى من رؤى وأحكام تقوم على مداخلات متشابكة ، تمثل فى النهاية كتلة متماسكة ، فاذا عرض لها ما يشينها عاد بهاؤها ورونقها دمامة وتشويها وقبحا ، والاتباع — حينئذ — أولى من الابتداع فى نظرهم ••

ولا يفتأ المعارضون يلوحون بمنعطف آخر فى القضية ، يضرب الى جذور غائرة فى أعماق « النص الشعرى » ، ومدى الاطمئنان الى وثاقته ووثاقة المصادر التى تحمل ذلك النص ، فمعلوم أن بعض ما تردد فى تضاعيف عديد من أمهات الكتب دخيل لا يمثل الشعر الاسلامى ولا يعكس خصائصه ومنها — على سبيل المثال — سيرة (ابن اسحاق) التى تكاد تكون المصدر الأم للشعر فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، والمنبع الثدى الذى يتدفق بينابيع من الشعر ينهل منها الدارسون ، وعلى الرغم مما بذله (ابن هشام) فى ملاحقة أشعارها ، مستندا فى نقدها الى علمه وتذوقه وبصيرته ، فما يزال هناك طائفة غير يسيرة من نصوصها فى حاجة الى مراجعة ، اذ النص بصفة عامة أساس للالمام بما للقضية المطروحة وما عليها ، ومن هنا ينبغى التوجه الى النص والمضى على دربه ابتغاء تحقيقه وتوثيقه •

والخطوة الأولى ألا نرتب — مرحليا — أو نؤسس رؤى تاريخية أو نقدية على الموسوعات والمراجع المتوافرة فى المكتبة العربية وحسب ، فذلك لا يعدو أن يكون عملا شائها فى النهاية ، وانما تستمد قضية الأدب الاسلامى حيويتها اذا احتشد المخلصون للتراث احتشاد من يود التأصيل

للفكرة تاريخا ونقدا ، فان هذا — بلا مراء — أولى من تحفز لا مردود له فى أحايين عديدة ، وأى نجاح فى هذا السبيل — مهما يكن حجمه أو صورته ، دفع للفكرة وتحريك لها ، وعندها نستطيع أن نصل الحاضر بالماضى ، كما يمكن استخلاص معالم نقدية تأتلف فى مجموعها ، اضافة الى ما استقر بين جنبات النقد العربى فى عصور ازدهاره وتألقه ، لتكون نظرية نقدية اسلامية ، فاذا أردنا تحديد المصطلح آنذاك بعد المعايشة الدءوب والوقوف على تلك الحلقات المفقودة من تاريخنا حددناه فى غير تهيب ، واذا عن لنا أن نصوغ — فى ضوء ذلك التحديد — نظرية اسلامية تنتظم النفس والكون والحياة فى اطار أرجته نظرات الأسلاف من التراثيين وجدنا طريقا ممهودة لا تفضى الى العثار أو الضرب على غير هدى فيه الى الحدس والتخرص ، كيف وهى معايشة تأخذ بالتجديد لا التبديد فى مرونة تتناسب والنظرية ، ويقوم على عطاء علمى بلا حدود •• وتنكشف قسماتها من اكباب على التراث ، ومعاطفه ، فأما أن نكون فى القرن الخامس عشر للهجرة وكثير من العزائم وانية ، ودواوين الجموع من شعراء الاسلام ما تزال تعيش فى سراديب الكهوف فذلك ما يثير الدهشة ويبعث على الغرابة !!! •

ان علينا أعباء ثقالا متى أردنا الانطلاقة الجادة والحركة الوثابة صوب تلك الغاية وفى الصدارة منها أن نشمر عن ساعد الجد للتنقيب فى التراث بما يجلى غوامضه ، ويستكشف مطموره وموضوعاته ، ويعالج قضايا واهتمامات ، ويجمع الأشلاء المبعثرة هنا وهناك ، فعندئذ يغدو طرح قضية « الأدب الاسلامى » موضوعيا الى حد كبير ، وآية الآيات التى تدمغنا بالتقصير فى هذا الباب ما يذكره المرحوم الأستاذ (محمد عبد الغنى حسن) وهو بصدد مقال له عن « المراثى النبوية وشعرائها » حيث يقول :

« وعجيب جدا أن تمر على الأمة العربية الاسلامية هـذه القرون الأربعة عشرة الطويلة ، وأن يمر على وفاة هاديها وزعيمها (محمد بن عبد الله) هذا الزمان الممتد المبسوط فلا نجد موضوع وفاته وما يتصل بها مضمونا ملموما كما تجد موضوع « مولده » وانما يصادف القارىء عن وفاة النبى وملابساتها نبأ هنا ، أو مرثية هناك ، حتى انك لا تجد فى كتاب المؤرخ « الطبرى » فى التاريخ على طوله وضخامته وتوسعه فى أخبار الرسول ، وولوع صاحبه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ — لا تجد فيه بيتا واحدا من قصيدة رثى بها النبى عليه السلام ، ولو لم يرد فى تاريخ « الطبرى » شعر البتة لقلنا ان مؤرخنا الاسلامى العظيم قد جرى على طبعه من عدم الاهتمام بذكر الشعر فى كتابه الكبير ، ولكن تاريخ « الطبرى » مملوء بأشعار غزار ، جاهلية واسلامية ، فما باله يغفل المراثى التى قيلت فى رثاء النبى ويسقطها من حسابه ؟

ولقد جرى المؤرخ « ابن الأثير » صاحب « الكامل » على نهج مؤرخنا « الطبرى » فى كتابه من حيث عدم التعرض لرثاء الرسول ، فلم يذكر لنا مرثية شعرية واحدة ، أو مقطوعة قصيرة من الشعر قيلت فى رثاء نبى هذه الأمة ؟ .

ولعل المؤرخ الوحيد الذى لم يغفل ذكر مراثى الشعراء للرسول من كتابه ، ولم يسقطها من حسابه هو (أبو محمد عبد الملك بن هشـام) صاحب « سيرة النبى » ، والذى يعد أوثق مصادرنا عن حياة النبى وعن وفاته الا أن (ابن هشام) لأمر لا نعلمه لم يذكر من الشعراء الذين رثوا النبى صلى الله عليه وسلم الا « حسان بن ثابت »[٥٣] .

أجل ، فذلكم أمر عجيب حقا فى وقت يأبى مؤيدو الأدب الاسلامى فيه الا أن يقدموا دراسات عن النظرية ، مع أن موضوعا كهذا — ومثله كثير — يرتبط الى مدى بعيد بالنظرية وجوانبها تاريخية كانت أو نقدية

لم يعره الدارسون التفاته،ومن ثم يرفع المعارضون عقيدتهم بأن النظرية لا ينبغى أن تقوم على آحاد تفاريق من النصـــوص ، مما يحتم على المؤيدين أن يخفوا الى التراث ، ومدارسته بما يستبطن حقائقه ، ويستشف مفاهيمه ، ويسبر أغواره •

ولنا فى صنيع الدكتور « عماد الدين خليل » ما يبصرنا أولا وأخيرا بأن الانعطاف الى صوغ نظرية للأدب الاسلامى ليس أمرا قريب المنال ، بل يحتاج الى خطوات وئيدة ، وتعوزه جهود جبـــارة قبل الاقدام على العمل ، فقد اختار « نماذج شعرية لشاعر أبعد ما يكون عن الاســـلام سلوكا ان لم نقل تصورا ، بل انه ليضرب به ويشعره المثل الأعلى على مجافاة الاسلام والابحار ضد قيمه وتصـــوراته وأعرافه ، ذلك هـــو (أبو نواس) الســـكير العربيد الضـــائع بين زقوق الخمر فى أزقـــة (بغداد) •

ولكن الرجل تاب أخيرا ، وباب التوبة مفتوح لكل طارق ، ومن ثم وضعت (والكلام له) تلك المختارات تحت عنوان الباب المفتوح ، وهى مقطوعات عذبة سلســـة ، ولشدة عذوبتها وسلاستهـــا أصبحت تجرى على الألسنة مجرى الأمثال ، وتلعب دورها فى تعزيز (التوبة) كقيمة أصيلة فى التصور والحياة الاسلامية •

ثم يقول : « ولكن هل حسمت المسألة بهذه السهولة » ؟

ويكون جوابه : أبدا ، ويكشف عن التجربة التى خاضها فى قوله :

وأذكر أننى وعددا من أساتذة الأدب والأدباء الاسلاميين أثرنا هذا الموضوع وناقشناه طويلا ، مقلبين الأمر على وجوهه ، فمن مبيح بحجج مقبولة ومن محرم بحجج مقبـــولة هى الأخرى ، ولم نصل الى نتيجة قاطعة •

ان الموضوع لينطبق عليه مبدأ (تكافؤ الأدلة) الذى كان يقول به « أبو حيان التوحيدى » رحمه الله •

ويتساءل د• « عماد الدين خليل » فى أعقاب ذلك على النحو الآتى :

ماذا لو أن أديبا ماركسى الهوى والفكر والانتماء ، ملحدا حتى النخاع طرح بعض مقولاته الابداعيـــة فجاءت تلك المقولات ــ بالصدفة المحضة ــ متوافقة مع المنظور الاسلامى ؟

وماذا بصدد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها » ، وماذا بصدد تقييمه لقصـــائد قالها شعراء ما كانت قصائدهم يوما الا حربا على الاسلام ، وتعزيزا لمواقع خصومه ••

انها معضلة (تكافؤ الأدلة) مرة أخرى(٥٣) •

ومن أجل تضارب الأدلة المتكافئة النابعة من قيمنا وتراثنا يرى المعارضون للأدب الاسلامى ــ ان صح أن يسلموا بتكافىء الأدلة ــ أن هذه القضية بوسعها أن تزلزل مفاهيم كثيرة لا فى مجال الأدب والشعر فقط ، بل فى مجال الدراسات الانسانية بعامة ، وتلك أمنية غالية ، تهجس فى الضمائر ، مرتقبين ذلك اليـــوم الذى يجســـد طموحهم ، وبعكس استشرافهم •• وهذا لا يتأتى ــ بالطبع ــ الا بعد جهد جهيد ، وجلد طويل ، واخلاص غيور ، يتجسد فى المحقق الضالع ، والدارس الطلعة ، والباحث المدقق ، والناقد الحصيف ، ومن وقف نفسه ــ بعد ــ على خدمة القضايا الاسلامية حبة لله تعالى ، ورغبة فى مرضاته وثوابه •

ويوم يبرز الى الوجود ذلك المنهج الأصيل الذى شارك فى صـــنعه الأديب ، والشـــاعر ، والناقد ، فتكون الأعمال الابداعية والنقدية نبعة فى دوحته ، ونورا فى آفاقه ، يومذاك لا نملك الا أن نبارك هذه الطفرة التى دفعت الجيل الصاعد الى « أن يكتسبوا الخبرة الفنية من كل مكان فى العالم يمكن أن يمدهم بالخبرة المنشودة ، ثم يعودوا الى أنفسهم فيبدعوا فنا يعبر عن ذاتيتهم الأصـــلية ، يعبر عن المفاهيم الواســـعة

الشاملة العميقة الجميلة ، وبذلك لا يكونون أنفسهم فحسب ، بل يقومون كذلك باضافة فصل جديد فى الآداب والفنون العالمية ، هو أروع فصولها وأشهاها ، وهو المرآة المجلوة التى تنظر فيها الانسانية نفسها فتجدها على أصفى صورة وأنقاها ، وهى مهمة ضخمة تحتاج الى صبر وأناة وتمكن وعمق وأصالة ، ولكنها ليست عسيرة التحقيق ، حتى تمتلىء نفوس الفنانين والأدباء بمفاهيم هذا المنهج ، فتنطلق من ذاتها تنشىء تصورات فنية جديدة ، وصورا فنية جديدة ، وموضوعات شائقة ذات جاذبية وجمال مشرق طليق »(٥٤) .

ويزيد المعارضون — فى نهاية المطاف — أن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية ، وأن مناقشة القضايا التى لا هى من جوهر الاسلام ، ولا من أركانه ، مالم تكن ناصعة يراها الانسان مثل الشمس فمن أوجب الواجبات أن يكاشف بعضنا بها بعضا ، وخصوصا اذا لم تطمح أدلة المؤيدين الى ما يبدد عنها الغشاوة ، على أن ذلك لا يعنى من جانبهم اتخاذ « أيدلوجية » معينة ، أو مقام يسيئون فيه الى الاسلام .

ومن ضيق العطن أن يكون تبنى موقف المعارضة — من قبلهم — باعثا على القدح فى أفكارهم ، أو اتهامهم — عن قصد أو غير قصد — بما ينال منهم .

فالمؤيدون والمعارضون — شهد الله — جميعا مسلمون ، وربما كان قبيل المعارضين أو عدد منهم من أشد الناس غيرة على دين الله وكتابه وسنة رسوله ، لكنهم يتمثلون بقول الشاعر العربى :

للحرب والضرب أقوام لها خلقوا
وللدواوين كتاب وحساب

ذاك من ناحية ، ولعلهم يرومون من ذلك الى أن قضية « الأدب الاسلامى » صارت كلأ مباحا لكل من قرأ نتفا فى التراث ومن لم يقرأ ،

حتى أدت العجلة ببعض المشاهير فى صفوفهم الى الوقوع فى أخطـاء يخشى رهط من الناس أن يمثل نزعة عندهم ، وما ظنك بمن يعزو منهم مطلع معلقة (عمرو بن كلثوم) الجهبرة(*) :

ألا هبى بصـحنك فاصبحينـا
ولا تبقى خمـور الأندرينا
مشعشعة كـأن الحص فيهـا
اذا ما المـاء خالطها سـخينا

« الى الأعشى » : ألا يدل ذلك على التسرع ولا أقول الغفلة !!! •

ومن جانب آخر فان النصوص الدينية التى استنبطت منها الأحكام الشرعية وكانت محلا لاجتهاد أئمة المذاهب الفقهية والخلاف حولها لم تكن — فى يوم من الأيام — سببا للتجريح والخصومة ، واذا جرى ذلك فى النصوص الدينية فلأن يكون الخلاف فى النص الأدبى والرؤية النقدية أهون شأنا وأكثر ترخصا ، وأسوغ منطقا •

وثمة جانب ثالث لا يقل خطرا عما أسـلفنا يتجوهر أصـالة فى الارتباط بقضية احياء التراث تلك التى يجب أن تظفر بحظ واف من عناية المهتمين ورعايتهم ، اذ لا يصح أن تكون هنالك على أرض الوطن العربى لجنـة لتحقيق التراث ومناهجه تضـم المتخصصين من ذوى الممارسات العالية ، والخبرة المتمكنة من التراث العربى والاسلامى ، ثم يكون الاحياء فى أطر من أشكاله احياء عشوائيا لا يدخل فى مفهوم الاحياء الحق •

(*) انظر : الاسلامية والمذاهب الادبية ، نهاية صفحة ٨٣ ، وبداية ٨٤ ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٧ م وطالع : شرح المعلقات السـبع للزوزنى ١١٨ — دار صادر بيروت .

ومن الدلائل على ما نذكر أن نجد كتابا ككتاب « مقدمة فى صناعة النظم والنثر » لشمس الدين النـــواجى قـــد أكب على تحقيقه بعض الدارسين ، مع أن الكتاب يجتر معلومات ترددت فى الساحة النقـــدية والأدبية ، ولكم أصاب د• يوسف حسين بكار حين راح يعقب ــ على هذا العمل ــ قائلا :

« وأحسب أن هذا الكتاب من الموروث الذى لا يجب احياؤه ، وأنه مما نشر وكان حقه التأخير والاهمال ، ومن الفروع الضعيفة التى قدمت على الأصول ، لأنه من أوله الى آخره لا يضيف جديدا الى ما تعارف عليه النقاد قبله فى صناعة الشعر والنثر معا » •

و « الاهتمام بالتراث ليس عملا تاريخيا ماضويا بقدر ما هو عمل حياتى مستقبلى ، والأمر لا يمكن أن يبقى ــ كما هو الآن ــ فى حدود الوفاء النظرى له ، والاشادة العاطفية به ، وانما هو كذلك ــ أو قبـــل ذلك ــ فى الانتفاع به ، والوفاء لأنفسنا من خلاله ، انه ليس زينة ، ولكنه سلاح ، وليس تباهيا وادلالا ، ولكنه قبل ذلك نوع من الاعداد ولون من كسب الثقة بالنفس »(٥٥) •

واخال أن المؤيدين لقضية الأدب الاسلامى والمعارضين يلتقون معا على كلمة سواء فيما يخص الأولويات التى تحكم العمل فى احياء التراث ، فمن الاجحاف أن تظل قضية الأدب الاسلامى حائرة على النحو الذى نعيشه فيما تخرج أفواه المطابع كتبا أو مأنا الى نمط منها ، فتلك نكسة فكرية ، نبقى ــ دونها ــ نندب الحظ العاثر ، ويحتدم الجدل بيننا فقط فى قضايا ما كان أغنانا عن التشرذم لو تجرد لها نفر من العلماء الأصلاء فى ميدان البحث والدرس ، وبهذه الرؤية يمكن أن نقـــدم الى الأمة الاسلامية نظرية للأدب الاسلامى من خلال منهج نقدى ، يضبط ايقاع الفن الاسلامى ويلتف حوله الشداة من أصحاب الكلمة •

والله نسأل أن يلهم المؤيدين حسن الهداية وكمال التوفيق ، كما نضرع اليه فى عليائه أن يجعل من المعارضة سندا للحق لا عليه ، وأن يهدينا جميعا — مؤيدين ومعارضين — سبيل الرشاد •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •••

أ•د• فتحى محمد أبو عيسى
أستاذ الأدب العربى والنقد
وعميد كلية اللغة العربية
فرع جامعة الأزهر بشبين الكوم

ثبت بمصادر ومراجع البحث

١ — سورة (المائدة) من الآية (٣) .

٢ — سورة (الأنبياء) الآية (١٠٧) .

٣ — كيف نتعامل مع القرآن ٢٢ للداعية الاسلامى الشيخ محمد الغزالى — المعهد العالمى للفكر الاسلامى .

٤ — انظر : تاريخ آداب العرب ٢٩٥ وما يليها للمرحوم مصطفى صادق الرافعى ١/٢٩٥ وما بعدها — الطبعة الثانية ١٩٤٠ .

٥ — راجع مجلة المورد العراقية المجلد السابع — العدد الثانى (١٩٧٨) .

٦ — شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبى أحمد الحسن العسكرى تحقيق عبد العزيز أحمد — الطبعة الأولى (١٩٣٦) .

٧ — دراسة فى مناهج البحث الأدبى ٧٧ د. فتحى محمد أبو عيسى — ط : دار الشعب بالقاهرة (١٩٧٩) .

٨ — سورة (المائدة) الآية (٥٠) .

٩ — طالع القصيدة فى شرح ديوان حسان بن ثابت ٤١٨ وما يليها — ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقى — دار الأندلس — بيروت ١٩٧٨ .

١٠ — شعر عبد الله بن الزبعرى ٥١ تحقيق د. يحيى الجبورى — مؤسسة الرسالة ط : ٣ (١٩٨٧) .

١١ — شعر عروة بن أذينة ٣٦٠ وما يليها — تحقيق د. يحيى الجبورى — دار القلم بالكويت .

١٢ — مدخل الى نظرية الأدب الاسلامى ٨٤ وما يليها د. عماد الدين خليل — الطبعة الثانية (١٩٨٨) مؤسسة الرسالة .

١٣ — الأدب الاسلامى بين النظرية والتطبيق ١٧ د. صابر عبد الدايم — الطبعة الأولى (١٩٩٠) دار الارقم بالزقازيق .

١٤ — اباطيل واسمار للعلامة الشيخ محمود محمد شاكر ١٠ وما يليها — مطبعة المدنى — نشر مكتبة دار العروبة .

١٥ — الأدب الاسلامى ضرورة ٥٨ د. أحمد محمد على — الطبعة الاولى — دار الصحوة .

١٦ — منهج الفن الاسلامى ١٨١ للأستاذ محمد قطب — الطبعة الخامسة — دار الشروق .

١٧ — نحو أدب اسلامى ١٠ من تقديم د. محمد مريسى الحارثى — طبعة ١٩٨٧ .

١٨ — المرجع السابق من مقال للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانى ، بعنوان : قضايا حول الشعر العربى والأدب الاسلامى ٧٤ .

١٩ — (ذاته ص ١٢٠) .

٢٠ — نظرة جديدة الى التراث ١٧ محمد عمارة — المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

٢١ — المفضليات للمفضل الضبى ١٠٩ — تحقيق وشرح الأستاذين أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون — الطبعة الخامسة — دار المعارف .

٢٢ — الأصمعيات ٢٠٢ للأصمعى ، تحقيق الاستاذين أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون — الطبعة الرابعة — دار المعارف .

٢٣ — منهج الفن الاسلامى ١٨ وما بعدها (مرجع سابق) .

٢٤ — الموشح للمرزبانى ٦٤ طبعة الأستاذ محب الدين الخطيب ط : الثانية (١٣٨٥) المطبعة السلفية .

٢٥ — ذاته .

٢٦ — ذاته ٥٦ .

٢٧ — أخبار ابى تمام للصولى ١٧٢ ، تحقيق د. خليل عساكر وآخرين — المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٨ — الوساطة للقاضى الجرجانى ٦٤ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلى محمد البجاوى ط : (عيسى البابى الحلبى) .

٢٩ — يتيمة الدهر للثعالبى ١٨٤/١ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — المكتبة التجارية (١٩٥٦) .

٣٠ — الأدب الاسلامى ضرورة ٩٠ (مرجع سابق) .

٣١ — تاريخ النقد الادبى عند العرب ص ٥٠ وما يليها د. احسان عباس — نشر دار الشروق — عمان .

٣٢ — طبقات فحول الشعراء ٤٨٧/١ وما يليها — تحقيق العلامة الشيخ محمود شاكر ، مطبعة المدنى .

٣٣ — العمدة لابن رشيق ١١٨/١ ، تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد — دار الجيل — بيروت .

٣٤ — الشعراء نقادا ص ١٦٢ د. عبد الجبار المطلبى ط : الأولى — بغداد ١٩٨٦ .

٣٥ — الشعر العربى فى محيطه التاريخى القديم ص ٤٣١ د. نجيب محمد البيبيتى — الطبعة الأولى ١٩٨٧ — دار الثقافة — الدار البيضاء .

٣٦ — الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٣٧/١٠ وما يليها ، تحقيق وشرح الشيخ أحمد محمد شاكر دار المعارف ١٩٦٦ .

٣٧ — ديوان (أبى محجن الثقفى) ٥٢ وما يليها صنعة أبى هلال العسكرى — نشر د. صلاح الدين المنجد ، ورواية الأغانى فى البيت الاول : ولم أك كائعا ، والكائع : الجبان الهياب ، الجزء ١٢/١٩ تحقيق عبد الكريم العرباوى — نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٨ — وانظر شعر المخضرمين واثر الإسلام فيه د . يحيى جبورى — نشر مكتبة النهضة — بغداد .

— ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس ٦٠ تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمنى — نشر : الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة .

٣٩ — شاعر الاسلام حسان بن ثابت ١٧٦ وما يليها — نشر مكتبة المنار — الكويت .

٤٠ — الموازنة للآمدى ٢٥٩/١ ، تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد — ط : الثالثة — دار السعادة .

٤١ — العمدة ١٣٠/٢ (مرجع سابق) .

٤٢ — الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٨١ ، تحقيق : على محمد البجارى ، محمد أبى الفضل ابراهيم (عيسى البابى الحلبى) .

٤٣ — الأغانى ٧١/١٤ عن طبعة بولاق الاصلية — دار صعب — بيروت .

٤٤ — الشعراء نقادا ١٧٠ وما يليها د. عبد الجبار المطلبى ط : الأولى — بغداد ١٩٨٦ (مرجع سابق) .

٤٥ — جريدة الشعب القاهرية — العدد ٦٣٦ — الصادر فى ١١ فبراير ٩٢ ، من مقاله الأسبوعى : (هذا ديننا) .

٤٦ — تاريخ الشعر العربى ٤٦/١ د. محمد عبد العزيز الكفراوى — دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٤٧ — تاريخ الشعر العربى ٤٨/١ وما يليها بتصرف يسير (مرجع سابق) .

٤٨ — طبقات فحول الشعراء ١٨٧/١ وما يليها (مرجع سابق) .

٤٩ — الاصابة لابن حجر العسقلانى — القسم الثالث ٢٥١ ، تحقيق وضبط وفهرسة : على محمد البجاوى — دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٥٠ — العمدة ٢٧/١ (مرجع سابق) .

٥١ — مقدمة فى النقد الأدبى ٢٩٣ وما يليها — د. محمد حسين عبد الله / ط : الأولى ١٩٧٥ م دار البحوث العلمية — الكويت .

٥٢ — فى صحبة الشعر والشعراء للمرحوم محمد عبد الغنى حسن — ٢٩٦ وما يليها — نشر : عالم الكتب — القاهرة .

٥٣ — مدخل الى نظرية الأدب الاسلامى ٢١٧ وما يليها ببعض تصرف (مرجع سابق) .

٥٤ — منهج الفن الاسلامى ٢٢٦ (مرجع سابق) .
دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع .

٥٥ — قضايا فى النقد والشعر ٨٣ د. يوسف حسين بكار — ط : اولى —

مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
استاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية